السنة العاشرة   العدد ١٧   ١ ايلول   سنة ١٩٠٧

# المشرق

## دبرا ليبانوس

### او دير قديم في الحبشة العليا

للصيدلي القانوني عبدالله افندي ميخائيل رعد

استأذنتُ الحكومة الحبشيَّة فاذنت لي بعد اللتيا والتي (وبعد استلطاف احد العمّال!...) بالذهاب لزيارة دير دبرا ليبانوس وهو منسك شهير في الحبشة ومن اقدم الاديرة في الشرق يبعد عن اديس ابابا مسافة ثلاث مراحل منها الى جهة الشمال الشرقي وندر مَن زار هذا المكان من الافرنج فضلًا عن السوريين فلذلك خطر لي وانا في تلك الارض ان أُطلع قرّاء المشرق الادباء على احوال هذا الدير التاريخي وهأنذا اليوم اكتب اليهم هذه العجالة وهي نسخة ما علّقتهُ على دفتر مجموعتي من الملحوظات التي عاينتها ضنًّا بها قلت اشاء ان تبقى مدفونة حبرًا على ورق في مجموعتي هذه فاقول:

☆

دير دَبرا ليبانوس — وبالعربيَّة دير جبل لبنان — منسك قديم في الحبشة العليا يبعد كما اشرتُ ثلاث مراحل شمالًا شرقًا من عاصمة منليك وقد استصحبت في رحلتي هذه خريطة الحبشة وبارومترًا وقبلة نامه وما يلزم من الادوات لمدّ الخطوط على الورق ضبطًا لنقطة المحل جغرافيًا فوجدت — ما لم يكن هناك غلط في عمليّات حسابي او شطط في القاييس المذكورة — ان هذا المكان يعلو البحر ٢٧٠٠ متر وموقعهُ في

٩ْ٢٥ من العرض الشمالي و ٣٧ْ١١ من الطول الشرقي عن هاجرة باريس مع ضرب الصفح عن الثواني في الخطين لعدم اهميتهما · امَّا الباعث الذي حدا بالاحباش في سالف الزمان ان يدعوا هذا المكان باسم جبل لبنان فهو اولًا تيمُّنًا باسم ذلك الجبل الذي جاء ذكره في نصوص الكتاب الكريم ثم لوجه الشبه بينه وبين جبل الشام من حيث التكوين الطبيعي والهيئة وبرودة الماء والغابة التي تمتدُّ في تلك الجهة اذ معظم اشجارها من نوع يدعى « ذگبا » من الفصيلة الراتيجيَّة يشبه كثيرًا شجر الارز المشهور فدعوا المكان باسم جبل لبنان لشهرة الارز في هذا الاخير

لا اطيل الكلام في وصف الطريق بين العاصمة وهذا المكان بل اكتفي بالتنويه الى انَّ المكان قائم على حدود مملكة الشوا وامارة سلاله فالمرحلتان الأوليان يجتازهما المسافر في طريق شديدة الوعورة ما خلا بعض السهل ويمرّ في الاولى منهما على مدينة انطوطو العاصمة الحبشية سابقًا وهي على مقربة من اديس ابابا العاصمة الحالية · وفي الثانية يجتاز نهرًا كبيرًا يدعى نهر « دوبر » تجري مياهه في وادٍ عميق فتجتاز مقاطعة الشوا ثم امارة سلاله ثم مقاطعة گودجام ثم بلاد ولگا وبني شنگول ذات المعادن الذهبية حتى يصبَّ اخيرًا في النيل الازرق · ولا حاجة بي الى القول ان هذا النهر يبدأ صغيرًا ثم تنزر مياههُ رويدًا رويدًا لما يصبُّ فيهِ على طول مجراه من السواعد كدفار الانهار والاعين والسواقي والسيول حتى يصل الى مصبّه في النيل الازرق من جهة بحيرة عباي وقد اصبح نهرًا عظيمًا · وهو يحتوي على طول مجراه على انواع التماسيح وافراس الماء · ثم بعد اجتياز هذا النهر يبدأ سهل لا يُرى لهُ اول ولاَ آخر فيهِ مزارع وحقول ومراعٍ خصبة ومجاري مياه كثيرة العدد وكثيرٌ من القرى المبنية على القمم والروابي حتى ينتهي الطريق الى الدير في آخر هذا السهل

دبرا ليبانوس معقل منيع كان يلجأ اليهِ الاحباش في الاعصر السالفة عند هجوم الامم عليهم فيكونون في مأمن على حياتهم في عهدٍ لم يكن بعد اختُرع السلاح الناري ولم يعرف الاحباش سوى الرماح والعصيّ والحجارة سلاحًا في حروبهم فكان لهم في ذلك المحل ملاذ لا يستطيع دخولهُ العدو ومعتصم حصين ذو مناظر فريدة في العالم كما سأذكر · واول ما جُعل هناك مقام دينيّ في الجيل الثالث عشر على عهد الاسقف الصالح تقلاهيانوت (ومعناه غرسة الايمان) الذي كان كاثوليكيًا (راجع المشرق ٦:

٦١٩) مبشراً رسولاً غيوراً وهو الذي رمَّم الاديرة التي هدمت في الحروب السالفة عند هجوم البرابرة. فهذا الاسقف الشهير اضطرتهُ يوماً نكبات الحروب الداخلية في الحبشة ان يلجأ الى هذا المعقل وتبعهُ جمٌّ غفير من الاكليروس فبنوا هناك كنيسة. ولمَّا توفي هذا الاسقف في بلاد تكره بعد هدوء الاضطرابات وعودته الى كرسي رعايته نقل الكهنة رفاته الى دبرا ليبانوس واودعوها الكنيسة التي كان قد بناها هناك بكل عناء ومزيد اهتمام في ايام المحن والاضطرابات والخوف والجوع والعري وهناك جرت عجيبة على يده فانهُ اذ كان الشعب الكثير ملتجئاً الى ذلك المعقل هرباً من القبائل المعادية نضب ما كان متجمعاً من ماء المطر في ثقوب الصخور وظمئ القوم حتى كاد يموت عطشاً. فجثا الاسقف تقلاهيمانوت وصلَّى الى الله وصام وتضرَّع فانفجرت في ذلك المحلّ من قلب الصخر بنوع عجيب عين ماء رائق بارد وشرب الشعب وارتوى من ظمائهِ وسبحوا الله

ثم اضحى المكان منذ ذلك العهد مقدساً يحج اليهِ الى يومنا هذا عموم الحبش من كل فجٍّ وصوب واكرموا هذا الاسقف بعد موته اكراماً حتى انهم عدُّوه في مصاف القديسين وهم يعيدون لهُ يوماً في كل سنة وهو الثالث عشر من شهر «طِرْه» — وهو شهر طوبه القبطي — و يوافق العشرين ( او ٢١ في بعض السنين ) من كانون الثاني على الحساب الغريغوري ولعلهُ تذكار يوم وفاته او يوم تقل جثمانه الى ذلك المحل. فيتقاطر الاحباش في هذا العيد آتين الى الدير من كل انحاء بلادهم حتى من الجهات البعيدة مسافة شهرين بل ثلاثة اشهر ويعملون في دبرا ليبانوس مهرجاناً عظيماً. وقد يذهب ايضاً الملك والامراء في بعض السنين لحضور هذا العيد فيكون المهرجان احفل واعظم. وكذلك اصبح الماء مقدساً يأخذون منهُ الى يومنا هذا حتى الى اقصى الجهات تبركاً وتيمُّناً وامانةً فيوزعون منهُ في كنائسهم ويسقون منهُ المرضى ويمسحونهم بهِ وكثير منهم يأتون بمرضاهم الى ذلك المكان ليستقوا من الماء ويغتسلوا بهِ طلباً للشفاء من عاهاتهم وعدد منهم يشفون

وقد زاد بعضهم خرافة على ذلك شأن خرافات الشعوب الجهلاء فشوَّهوا وجه الامانة بهذه الرواية الغريبة. يقولون ان الله تعالى اذ سمع تضرع الاسقف تقلاهيمانوت ارسل اليهِ ماء هو جزءٌ من نهر الاردن وهذا الجزء يجري بنوع فائق العجب في بطن

الارض وصخور الجبال ومياه البحار حتى يصل الى دبرا ليبانوس فينفجر من قلب الصخر وهي خرافة لا يعيرها عِلية الاحباش اذناً صاغية بل هم يقولون انهُ ماء مقدس اذ ان انفجاره جرى بعجيبة على يد رجل قديس اكسبتهُ قوة الشفاء وهو لعمري قول حق لا يجلب عليهم هزء العارفين كقول الخرافة المذكورة

والمقتدرون من الاحباش ينقلون عظام آبائهم ورؤسائهم وامرائهم وذويهم الى تلك الارض لاعتبارهم اياها مقدسةً ‧ وبعضهم اذا شاخ او طالت مدة مرضه ذهب وقضى بقية حياته على مقربة من ذاك الدير حتى اذا مات دُفنت عظامـه في بطن ارض مقدسة ‧ فمن ذلك ان عمة جلالة النجاشي الحالي ولهـا من العمر ما يقارب المائة من السنين قد هجرت البلاط وذهبت الى هناك حيث تعيش في بيت حقير الهيئـة قائم على قمة عالية تطلّ على الدير المذكور مسرورةً تقضي بقيـة حياتها في ارض مقدسة وتُدفن فيها بعد مماتها وقد اعدت لنفسها قبرًا داخل الدير بجانب قبر اخيهـا الراس دارگه المدفون هناك ‧ امَّا اطلاق اسم دبرا ليبانوس على هذا المكان فاظنهُ اقرب عهدًا من تأسيس الدير المومإ اليهِ ولعلهُ لا يتجاوز مائة سنة

ينتهي بالزائر طريق المرحلة الثالثة الممتدَّة في سهل فسيح كما اشرنا فيرى عن بُعد طودًا شامخًا ينطح بقمته القبَّة الزرقاء منتصبًا امامه كالسور المنيع او كالقلعة الحصينة حتى اذا ما قاربت الطريق النهاية ترجَّل عن دابته ينتظر سالوصًا (اي سردابًا مكشوفًا) منقورًا وسط الصخور متحدرًا حتى يكاد يهوي الداخل فيهِ لقوة تحدُّره وتزلق رجله لملاسة ارضه ‧ ثم يعبر من هناك الى مكان آخر منبسط الارض كثير الصخور والاشجار بهِ عددٌ من البيوت المعرَّشة والمضارب هي مساكن الزوَّار فيضرب هو ايضًا في ذلك المحل سرادقه وبعد ان يكون اخذ قسطًا من الراحة واكل شيئًا من الزاد ينهض لزيارة الدير

لا يقطع الزائر عن مضربه خطواتٍ قليلة حتى يقف مندهشًا مذهولًا لِما يتجلَّى امامه من هول ذاك المنظر المخيف ‧ يقوم على حافة صخرة ضخمـة فيكشف الوادي الذي تحته حيث المنسك والكنيسة وقبور ذات ابنية عالية هي مدافن الملوك والامراء الاحباش ‧ يرى عن يمينه النهر يسقط باجمعه الى ذلك الوادي شلَّالًا يتجاوز علو انحداره ثلاثمائة متر فيهبط في بركة تكوَّنت هنـاك بفعل شدة هبوط الشلال مع مرور

الزمان فتزبد مياههُ وترغي ثم تسير سيراً سريعاً على عرض الوادي حتى تهبط ايضاً من جهته الأخرى شلالاً ثانياً على وادٍ آخر اكثر عمقاً من الاول حيث يجري نهر كبير يحدّ المنسك من تلك الناحية وبعد الوادي ينتصب ذلك الطود الشامخ الذي شاهدناه عن بعيد قبل وصولنا الى الدير . فيا لهُ من منظر مخيف ويا لهُ من معقل طبيعي حصين ندر وجود معقل آخر يماثلهُ بالمناعة . يقف الزائر هنيهة متأملاً في تلك البقعة العجيبة مُطرقاً بنظره الى اسفل الوادي فتصغر الارض في عينيه وتتراءى لهُ اشعة الشمس كانها دخان متصاعد . يرى الجبال تحدق بالمنسك إحداق الهالة بالقمر او السوار بالمعصم مستقيمة الصخور كانها قُدّت بالمقطع بل كانها نُشرت بالمنشار فيتساءل كيف السبيل الى ولوج هذا الحصن وباية طريق يستطيع الانحدار

قادني رفقتي الى جهة الشرق وانحدر نصفهم امامي في سلّم ضيق نحته مرور الارجل في كرور السنين وهو ينطلق من صخرة الى صخرة فوقفتُ متـانلاً مستشيراً نفسي في هل اتجرأ على اتباعهم خوفاً من ان تزلق بي القدم فاهبط في تلك الهاوية العميقة . وكان من تقدمني من رجالي ينزلون بعض السرعة كانهم الطرائد ثم يلتفتون الخطوة بعد الخطوة اليَّ ويصرخون ان « هلمَّ ولا تجزع » وكذلك فعل من تخلّف منهم معي واشاروا عليَّ ان اقلع احذيتي من رجلي خوفاً عليَّ ان تزلق بي القدم ففعلت كما قالوا لكني ابقيت الجوارب زيادة في الحرص ولعدم استطاعتي ان اسير نظيرهم حافي الرجلين ثم تبعت من تقدَّمني وتبعني الذين تخلفوا معي فكنت تارةً اتشبث بجذوع الاشجار الممتدة بين الصخور واخرى برؤوس تلك الصفا وطوراً اجلس واتقدَّم زاحفاً وجماعتي تنشطني وتمسك بيدي حتى انتهينا بالسلامة الى قعر الوادي حيث المنسك

( ستأتي البقية )

# المناهج في وصف المباهج

لحضرة القس الفاضل جرجس منش الماروني الحلبي (تتمة)

## ٦ في ابواب الكتاب

افضل الامام العظيم والمحسن الكريم السيد جرمانوس فرحات في جعلهِ هذا الكتاب الفريد في جملة كتب المكتبة المارونية واضاف الى فضلهِ فضلاً آخر في تصديرهِ لهُ بفهرس مطوَّل يقرّب منالهُ من مريدي فوائدهِ فالخّصهُ عنهُ اتساعاً في وصف محتوياتهِ وتمهيداً لما يأتي من معارضتهِ بغيرهِ من اشباههِ. واعلم ان ما يتخلّل الفصول من الارقام انما هي ارقام صفحات النسخة السابق وصفها

الفن الاول في السماء وما يتعلّق بها. الباب الـ ١ في ذكر مبدأ خلق السماء وهيئتها (ص ٢) الملئكة والجن. هيآت السموات. ما تصوَّرهُ القدماء من الافلاك. ما وراء نهاية الافلاك. عجز العقول عن ادراك حقائق الافلاك (٢١). الباب الـ ٢ في ذكر الكواكب السيارة (٢٣) اختلاف اوضاع الكواكب. الشمس ومسيرها. القمر وطلوعهُ ومذمتهُ. ليالي الشهر على ما قسمتها العرب. الخسوف والكسوف. الكواكب المتحيّرة (٤٦). الباب الـ ٣ ذكر الكواكب الثابتة وما رصد القدماء منها (٤٨) صور النصف الشمالي والجنوبي من الفلك. ما قُسمت اليهِ البروج من الاوضاع. شرح قولهم الاجتماع والقِران والنظر والاتصال والمقابلة. خنوض الكواكب السيارة. شرح الاقبال والادبار (٧٦). الباب الـ ٤ في ذكر منازل القمر وما قيل فيها (٩٢). السعود الاربعة. فوائد استحسنها العلماء. كواكب عرفتها العرب. خواص القطبين. النجوم التي يقع عليها لفظ الافراد والتثنية (١٣٥). الباب الـ ٥ في ذكر الآثار العلويَّة (١٣٧). النار والهواء والسحاب والثلج والبرد والرعد والبرق والشُّهُب (النيازك) وقوس قزح (١٥٨). الباب الـ ٦ في الليالي والايام (١٥٩) قسمة الليالي والأيام الى ساعات. اختلاف مقدار النهار بحسب العروض. ما يختص بهِ الليل والنهار من الذكر والوصف. الليالي والايام المشهورة (١٧٤). الباب الـ ٧ في الشهور والاعوام (١٧٦) الشهور والسنة والنسي

(معناهُ تأخّر رجب الى شعبان ومحرم الى صفر في سني الكبس (١ وفي رأي المؤلف ان العرب تعلمهُ من اليهود) والسنين المشهورة (١٨٢). الباب ٨ في فصول السنة وازمنتها (١٨٨) ما ذهب اليهِ العرب في ترتيب فصول السنة (١٩٠). البـاب الـ٩ في ذكر مواسم الامم واعيادهم

الفن الثاني في الارض وما يتعلق بها (٢٠٢). الباب الاول في مبدأ خلق الارض وهيئتها (٢٠٩) الاقاليم (٢١٢). الباب الـ ٢ في ذكر الجبال والمعادن (٢٣٢). الباب الـ ٣ في البحار والجزائر (٢٣٣) تقسيم البحار. انواع الجزائر (٢٤٥). الباب الـ ٤ في ذكر العيون والانهار (٢٥٧). الباب الـ ٥ في ذكر اسباب من سكن المعمور (٢٥٩) الكلدان واليونان والروم والافرنج والقبط والعرب والترك والهنـود والاكراد والفرس والبربر والسودان والصقالبة (٢٩٠). الباب الـ ٦ في ذكر البلاد ونواحيـا وما ملك المسلمون منها (٣٤٢). الباب الـ ٧ في طبائع البلاد واخلاق من سكنهـا من العباد (٣٤٧). الباب الـ ٨ في المباني التي بقي اثرها ووعظ خبرها (٣٦٨). الباب الـ ٩ فيما وُصفت بهِ المعاقل والمنازل

الفن الثالث في الحيوان وطبـاعهِ (٣٧١). الباب الـ ١ في ذكر خصائص نوع الانسان (٣٧١) شرف نوع الانسان. مبدأ خلقهِ. ما امتاز بهِ وتغاير اخلاقهِ. امكان استبدالهِ الخلق الدني بالخلق السني. (٣٩٩). الباب الـ ٢ في ذكر طبائع ذي الناب والظفر (٣٩٢) كالاسد والببر والنمر (٤٠٤). الباب الـ٣ في طبائع الحيوان الوحشي (٤٠٥). كالفيل والكركند والزرافة والابل (٤١٣). الباب الـ٤ في طبـائع الحيوان الاهلي (٤١٤) كالفرس والبغل والحمار والابل (٤٢٢). البـاب الـ ٥ في طبائع الحشرات والهوام (٤٢٤) كالحيات والورَل والضب والحرباء (٤٣٣). البـاب الـ٦ في طبائع سباع الطير وكلابها (٤٣٤) كالعقاب والبازي والباشق والبيدقة (٤٤٣). الباب الـ ٧ في طبائع بغاث الطير (٤٤٤) كالحمام والنمام والببغاء والقبج (٤٥٧). الباب الـ٨ في طبائع الطير الليلي والهبج (٤٥٧) كالكروان والصدى والبوم ودود القز (٤٦٩).

١) انظر ما ورد عن النسيء (في ٢ : ٢٤٦) من بلوغ الارب للسيد آلوسي

الباب الـ ٩ في طبائع حيوان البحر والمشترك (٤٦٥) السمك والرعّادة والسلحفاة والضفدع وبنات الماء (سيرنيس) وهي من خرافات القدماء.



هـذا ما امكن اثباته وقد اضربت عن كثير من الفصول خوف ملل القرّاء الكرام. وفي ذيل الفهرس ما نصُّهُ: «تمَّ هذا الفهرس بيد الحقير في رؤساء الكهنة جرمانوس اسقف حلب وذلك في دير سيدة لويزة من جبل كسروان من اعمال بيروت في كانون الاول سنة ١٧٢٨» اه رحمهُ الله ونفعنا بآثاره

## ٧ في حواشي الكتاب

عُني فريق من الكتّاب بهذا الكتاب النفيس فعلّقوا عليهِ الحواشي والتعاليق التي لا تخلو من الفوائد العلمية والادبية واللغوية والفلكية والتاريخية والانتقادية على ان الكثير منها يغلب عليهِ الخرافة والباطل اذ تعرّض كتبتها للزجر والفال والتنجيم وما شاكل هذه الاباطيل ممَّا يتعلق بعالم الغيب ودون الغيب أقفال لا يفكّها الزجر والفال

ومن هذه الحواشي ثلاث او اربع حواشٍ ادبية ادمجها المؤلف او غيرهُ باثناء الكتاب وميزها عن غيرها بقولهِ (حاشية للمؤلف) ومنها ست او سبع تعليقات

انتقادية وادبيَّة علّقها كاتبها الغفل على هامش الكتاب ويغلب عليها الافادة والخطورة.
ومنها حواشٍ عديدة شعرية علمية مصدَّرة (بحاشية لبعضهم) وقد انبأ الناسخ عن صاحبها حيث قال في (ص٥٣٢) ما حكايتهُ: «هذه الحاشية نظم الشيخ الامام الفاضل العارف بالله تعالى ابي اسحق ابراهيم الغزي الشهير بابن رقاعة نفع الله بعلومهِ وما فيهِ (اي في الكتاب) من الحواشي على قافية التاء فمن نظمهِ من القصيدة المذكورة (يريد تائيَّتهُ في النبات والاشجار) وغيرها من الابيات التي مكتوب عليها حاشية لبعضهم لهُ» اه

ومنها نحو اربعين او خمسين حاشية مطولة مندرجة في خلال الكتاب يشغل بعضها ثلاث صفحات من الكتاب او اكثر شرح بها معلّقها الغفل كثيرًا من اغراض الكتاب العلمية والتاريخة وفي الظن الراجح انها لناسخ الكتاب وهو غفل ايضًا اخذها عن النووي والنويري وكعب الاحبار وابي اسامة الباهلي والشريف الادريسي ونصير الدين الطوسي وفخر الدين الرازي وغيرهِ من العلماء المشاهير ومعظمها العظيم من اذكار النووي وتاريخ النويري والسرّ المكتوم في مخاطبة النجوم المنسوب للرازي وهي مميَّزة عن متن الكتاب بهذا الحرف (حاشية) فقط. ولعل النسخة الموصوفة تنفرد بهذه الحواشي عما سواها

ولا بدَّ من ان اعرض على القراء مثالًا او مثالين من هذه الحواشي:

«حاشية للمؤلف رحمهُ الله قال: ان النفوس يصلحها التنقل من حال الى حال والتوقُّل على شرفات الشد والترحال للاطلاع على الغرائب والاستطلاع للعجائب وقد قال الله تعالى: او لم يسيروا في الارض فينظروا. وقال سبحانهُ: هو الذي جعل لكم الارض ذلولًا فامشوا في مناكبها. وقال تعالى: افلا ينظرون الى الابل كيف خُلقت والى السماء كيف رُفعت. والى الارض كيف سُطحت... وذكر النبي (صلعم) خطبة قس بن ساعدة بعكاظ وفيها قولهُ: «ان في السماء لخبرًا وان في الارض لعبرًا» فتعيَّن على اللبيب المتبصر تتبُّع امر كل مسالكة وما هي عليهِ من المغلات والهيآت والاصطلاحات وما اشتملت عليهِ من الغرائب والاعجوبات ليعرف اهل كل قُطر ما عليهِ الآخر كانهم يشاهدونهُ عيانًا ويدركونهُ بيانًا ع آخر الحاشية والله تعالى اعلم»

ولا ادري المراد من حرف العين المفرد المثبت هنا ولعلهُ مقتطع من عنوان كتاب او علَم من الاعلام

ومن الحواشي المعزوة للناسخ وهي غريبة في بابها قولهُ:

حاشية ذكر النويري في تاريخهِ في الجزء ١٢١١ في قصة عيسى (عم) انهُ رُفع اول مرة ثم هبط الى الارض واوصى الحواريين ثم رُفع ثانية قال رفع الله تعالى عيسى لثلث ساعات مضت من النهار فلبث في السماء اياماً قيل سبعة ايام وقيل اربعين يوماً والله اعلم. ثم قال الله: ان اعداءك اليهود اعجلوك عن الوصية والعهد الى اصحابك فانزل اليهم واعهد لهم وأوصهم وانزل على مريم الجدلانية فانها في غار في جبل الجليل وكانت مريم الجدلانية من قرية من قرا (?) انطاكية يقال لها مجدلا (١ وكانت من اوسط بني اسرائيل حسباً وكانت اجمل نسائهم واكثرهم مالاً وكانت تستحاض فلا تطهر ابداً . . . فلما ظهر عيسى صلوات الله وسلامهُ عليهِ وشاع ذكرهُ اتتهُ في جملة المرضى ليشفيها فخجلت ان تسألهُ لكثرة الناس حولهُ فجاءت من ورائهِ فمسَّتهُ بيدها فزال عنها ما كانت تشكوهُ وظهرت (وطهرت) وتنفقت مالها فيما امرها بهِ من وجوه البر وصارت فقيرة وتبتَّلت وتخلت للعبادة وكانت تُعدّ من اصحاب عيسى. قال وامر الله تعالى عيسى ان يامرها ان تجمع لهُ الحواريين وان يستخلف عليهم شمعون وان يفرقهم دعاة الى الله عزَّ وجلَّ في البلاد وان يخبرهم بالعلامة التي تاتيهم من الله. ثم اهبطهُ الله تعالى فاشتعل الجبل نوراً واتتهُ بالحواريين فبلَّغهم رسالة ربهم وقال ذلك ان تأتيكم الملئكة في ليلتكم بمغارف فيها نور من نور الله فكل من تناول مغرفة منها فليلحس النور الذي فيها فانهُ يصبح وقد تكلم بلغة القوم الذي بُعث اليهم ويصبح وهو على باب مدينتهم. قال والليلة التي هبط عيسى فيها هي الليلة تدخن النصارى فيها باللبان. قال فلما فرغ عيسى من وصيتهِ للحواريين رفع بعد سبعة ايام وتوفاهُ الله تعالى لثلث ساعات من النهار ثم كساهُ الريش وألبسهُ النور وقطع عنهُ المطعم والمشرب وصار ملكياً انسياً آخر الحاشية. اه

وهذه خاتمة كل حاشية من الحواشي المدرجة في الكتاب

## ٨ً في اشباه الكتاب

لا تحدثني النفس ان اتبسط في ما نضا العرب اليهِ من الركاب في التحصيل وما عانوهُ في التدوين والتأليف وما تركوهُ من كتب موسوعات العلوم مثل ابن احمد الخوارزمي وابي يعقوب السكاكي وابن عروة الحنبلي وغيرهِ من الائمة المشاهير الذين تُعقد على فضلهم الخناصر فان هذا البحث خطير لا يسعهُ صدر مثل هذه المقالة وقد سبقني اليهِ جناب الاديب اللوذعي الامير شكيب ارسلان في مقالته الممتعة (اتساع التأليف في الاسلام) التي نشرها على صفحات المشرق الاغر (٢: ١٠٣-١٩٧) فليراجعها من شاء.

انما اقتصر هنا على ذكر التآليف التي تشبهُ الكتاب الموصوف بمحتوياتهِ وهي عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد الكوفي القزويني المتوفى سنة

---

١) بل من قرى الجليل من اعمال فلسطين

٦٨٢ هـ ألفهُ في زمن مفارقتهِ الوطن. المقالة الاولى في العلويات وفيها ثلاثة عشر نظراً. والمقالة الثانية في السفليات وفيها انظار وفصول. اولهُ: « العظمة لك والكبرياء لجلالك اللهمَّ يا قائم الذات.. » طبعهُ ووستنفلد في غوتنغن سنة ١٨٤٩ والباقي بهامش حياة الحيوان للدميري في القاهرة ١٣٠٥ هـ وترجمهُ بعضهم الى الفارسية وطبعهُ في طهران سنة ١٢٦٤ هـ. قال الحاج خليفة: « واختصرهُ بعضهم وسماهُ الدرر المنتقات (؟) من عجائب المخلوقات ». والمعرب عن بعض عجائب المغرب لابي حامد محمد بن عبد الرحمن الاندلسي. اولهُ: « الحمد لله الذي ابدع العالم علماً على توحيدهِ.. » ذكر فيهِ انهُ قد سألهُ بعضهم ان يذكر نسبهُ وبلادهُ وما شاهدهُ من عجائب البلدان فاجاب قال: رأيت ان اسمّي هذا المجموع المعرب على رواية الكاتب الآنف الذكر. وتحفة العجائب وطرفة الغرائب لعزّ الدين ابي الحسن عليّ بن ابي الكرم المعروف بابن الاثير الجزري المؤرخ المشهور صاحب الكامل المتوفى سنة ٦٣٠ جمعها من كتب عديدة اولها: « الحمد لله رب الارباب ومنشئ السحاب.. » ورتبها على اربع مقالات. وعجائب المخلوقات للشيخ شهاب الدين احمد الحموي. اولهُ: « الحمد لله رب العالمين قيوم السموات والأرضين.. » ذكر فيهِ انهُ ألّف كتاباً مشتملاً على الآثار العلويّة والسفلية. قال حاجي خليفة ما حرفهُ: « ثم اورد بعجائب المخلوقات ورتبهُ على فصول وابواب واختصرهُ بعضهم وسماهُ الدرر المنتقاة من عجائب المخلوقات ». وعجائب المخلوقات موجز عن كتاب القزويني لان مؤلفهُ كان ينقلهُ منهُ اولهُ: « الحمد لله رب الارباب.. » فيهِ بين جد وهزل وملح غريبة ورقيق وجزل والأولى ان يُعدَّ في جملة الادبيات المنثورة (اه عن ٢: ١٠٨ وما يليها من كشف الظنون طبعة الاستانة بتصرف وزيادة عليهِ)

ونخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر مجلد للشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ حطين وبشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧ اولهُ: « الحمد لله الذي خلق السموات والارض.. ». وهو على سبعة ابواب ككتاب عجائب المخلوقات. طبعهُ مهرن وفارين في بطرسبرج سنة ١٨٦٦. وكتاب العجائب والغرائب مؤلفهُ مغربي كما قالهُ مترجم السروري وهو على عشر مقالات: الاولى في العلويات ونظائرها. الثانية في الافلاك. الثالثة في الزمان. الرابعة في السفليات ونظائرها. الخامسة في العناصر. السادسة في المعادن. السابعة في النبات. الثامنة في

الحيوانات. التاسعة في القوى. العاشرة في الجنّ (عن ٢: ٢٨٧ و٥٩٠ من الكشف بزيادة عليه)

ونهاية الارب في فنون الادب في ثلاثين مجلّدًا لشهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري الكندي المتوفى سنة ٧٣٢ قال: «وما اوردت فيه الاغلب على الظنّ ان النفوس تميل اليه ورتّبته على خمسة فنون. الاول في السماء والآثار العلويّة والارض والعالم السفلي ويشتمل على خمسة اقسام. الثاني في الانسان وما يتعلق به ويشتمل على خمسة اقسام. الثالث في الحيوان الصامت ويشتمل على خمسة اقسام. الرابع في النبات ويشتمل على اربعة اقسام (وذيّله بقسم خامس من انواع الطب). الخامس في التاريخ ويشتمل على خمسة اقسام. والكتاب يعدُّه حاجي خليفة من الكتب التاريخيّة (الكشف ٢: ٦١٩) والأحق ان يعدّ في جملة موسوعات الفنون

وبقي كتب اخرى اقل مادّة واحط شأنًا من الكتاب الموصوف مثل بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد للشيخ ابي بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ وخريدة العجائب وفريدة الغرائب لزين الدين محمد بن المظفر المعروف بابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ في البلدان والمعادن والنبات والحيوان وقد عرّض صاحب الكشف باوهامه واباطيله الواهية (١: ٤٦٠) واقف عند هذا الحد خوف الملل ومن شاء التوسع فعليه بكشف الظنون وغيره من فهارس الكتب العربيّة

## ٩ً في معارضة الكتاب

انت خبير ان غالب الكتب السابقة الوصف هي مخاطيط ان لم تكن ملقاة في زوايا الاهمال فهي في حيّز العدم ولم ينشر منها في عالم المطبوعات سوى ثلاثة كتب اكثرها تداولًا كتاب عجائب المخلوقات للقزويني فأقتصر على معارضة الكتاب الموصوف به لما بينهُ وبينها من شدة المشابهة تتمة للفائدة وتكملة للبحث المقصود

فالقزويني يكسر كتابهُ العجائب الى مقالتين. الاولى في العلويات ينظر فيها الى الافلاك والكواكب والملئكة وما يلحق بها. والاخرى الى كُرة النار فكرة الهواء فكُرة الارض وما فيها من الاحجار والنبات والحيوان الى غيره من اشباهه. والكتبي يكسر كتابهُ المباهج الى كتب اربعة: الاولى في السماء ويبحث فيه عن الملئكة

والافلاك والكواكب وما يتصل بها . والثلاثة الباقية في الارض ويحصر بحثهُ فيها في الجبال والبحار والمعادن والبلاد والحيوان والنبات الى غيره من نظائره

والقزويني يبدأ بالبحث في الافلاك فالملئكة مثلاً . واما الكتبي فيبدأ بالكلام على الملئكة فالافلاك اعتبار ان البحث عمّا في السماء مقدم طبعاً على ما تحتها فالمباهج في هذا احسن ترتيباً من العجائب . والقزويني يبحث في القمر والشمس والكتبي يبحث في هذه قبل ذاك علماً منهُ بان القمر مستمدّ من الشمس وهذه اعلى من ذاك وهو ادنى منها فلكاً . فالمباهج افضل وصفاً من العجائب من جهة الفلكيات ايضاً

والقزويني يبحث في النبات فالحيوان اعتقاد ان البحث بالقوة النامية فالحساسة فالعاقلة اولى والكتبي يبحث في الحيوان فالنبات اعتقاد ان الحيوان العاقل فالحساس افضل من النامي فالقزويني ينتقل من قوة كاملة الى اخرى اكمل منها الى ان ينتهي الى الانسان لباب الكمال في المخلوقات والكتبي يبدأ بمجمل القوى ويأخذ بعده في تفصيل كل قوة منها بمفردها فالاول يتدرج من الاخص الى الاعم والآخر عكسهُ وكلا الاسلوبين حسن بيد ان الاول اعرق باساليب الفلسفة . والقزويني يعدُّ البرق والرعد والسحاب والرياح من السفليات والكتبي يعدها (من الآثار العلوية) ويلحقها بعالم الافلاك والكواكب فالمباهج ادقّ حكماً في المظاهر الجوية وغيرها من الموضوعات كما هو ظاهر

والقزويني يذكر من الاحجار مئة واربعة وعشرين حجراً واما الكتبي فيقتصر على اثنين وعشرين فقط ويضرب عن حجر القيْ وحجر الكلب وحجر المطر وحجر الناقة وحجر طارد النوم وحجر مسهل الولادة وما لحق بهذه الترهات التي هي بالاوهام اولى منها بالحقائق . وهو يضرب ايضاً عن منافع امثال هذه الاحجار التي تشفي من لسعة العقرب وتسكّن الورم وتبرئ القروح وتشفي الصدع وتنفع العيون وتحبب النساء الى ازواجهنّ الى غير ذلك مما هو معدود من الخرافات ولا حظ لهُ من المعارف في شيء . فالكتبي اكثر حكمة من القزويني في هذا الباب ،

والقزويني يذكر من الملئكة هاروت وماروت ومنكر ونكير والحفظة والمعقبات وحملة العرش والسياحين . . . ولا شيء من هذا في المباهج . والقزويني ينظر في تشريح اعضاء الانسان من اعصاب واوردة وشرايين وعظام وغيرها ولا ذكر لها في المباهج .

والقزويني ينظر الى القوى النفسانية الظاهرة والباطنة على اختلاف اصنافها وصاحب المباهج يُلمّ ببعضها الماماً خفيفاً فهو مقتصر من هذه الجهة كما لا يخفى

والكتبي يتطرق في مباهجهِ الى البحث في طبيعة الارض والمعروف من طبقاتها في عصرهِ ولا شيء من هذا في العجائب. ويذكر شهور العرب والروم والفرس والفرنج والسريان وفي العجائب لا يذكر الّا شهور الامم الثلث الاولى عازياً شهور السريان الى الروم. ويسلسل كلّاً من اولاد نوح سام ويافث وحام ولا شيء من ذلك في العجائب. ويذكر الشعوب الكلدان والفرس واليونان والروم والفرنج والقبط والعرب والبربر والحبش والسودان والترك والاكراد ولا اثر لهم في العجائب. ويذكر البلاد المعروفة بعصرهِ ولاسيما بلاد المسلمين على مقتضى التخطيط الجغرافي ولا شيء من هذا في العجائب. ويصف عجائب المباني كالبرج والخورنق والسدير وايوان كسرى والاهرام وغيرها ولا اثر لذلك في العجائب وعليهِ فالمباهج اكثر ابواباً من العجائب

والقزويني يحكي كثيراً من الامور من عجائب البر والبحر والاحجار والطلسمات ممّا يضرب عنهُ الكتبي في كتابهِ من حيث هو من باب الحكايات بل الخرافات واذا جاء فيهِ ببعض الشيء منها فمورد من قائلهِ ومذكور على عهدة صاحبهِ وهو في الغالب يعدّهُ من باب « اكاذيب العرب ومزاعم القوم وخرافات القوم » الى غير هذه ممّا يدل على دقّة نظرهِ وسعة عقلهِ وترفعهِ عن تصديق مثل تلك الترهات فتأمل

وبالجملة ان المباهج اغزر مادة واحسن تبويباً وابعد مرمى عن السخائف والتخاليط من العجائب بل ان كلّ مادة من مواد المباهج اكثر تبسطاً واكثر استيعاباً وادقّ تعريفاً وشرحاً من العجائب وهذا اقصر فصل في حجر اليشب اعارض فيهِ بين قول الكتابين ليظهر لك صحة الدعوى وان يكن قصرهُ لا يفي بالغرض المقصود.

قال الكتبي: « اليشب واليشم هما حجران يقرب بعضهما من بعض يتكونان في معدن الفضة من البخرة مقصرة عن كيان الفضة اما بالزيادة واما بالنقصان في الرطوبة ولا يُدرى ايهما كان [ اولا ] واجود اليشم ما كان لونهُ اصفر كلون العاج العتيق يميل الى الزرقة يسيراً هذا هو المعدني ومنهُ المصنوع ما لونهُ ابيض لهُ بريق وصفاء جوهر واشراق يؤتى بهِ من الصين. ومن المصنوع ما لونهُ ازرق في غاية الحسن والصفاء وليس المعدني في شيء من هذه الاوصاف البتة. واما اليشب فمنهُ الابيض والازرق وازرقهُ

مصنوع كما يصنع اليشم » ( اه عن باب ٢ من الفن الثاني )

وقال القزويني : « حجر اليشب ابيض مشهور يقال لهُ حجر الغلبة من استصحبهُ لا يغلبهُ في الحرب ولا يحجُّهُ احد ولهذا يجعلهُ الملوك في مناطقهم المرصعة واذا وضعهُ العطشان في فهِ سكن عطشهُ » ( اه عن جزء ٢ ص ٨ من طبعة مصر ). وبعد هذا كله لا اتمالك من العجب لاهمال المباهج في زوايا النسيان واصابة العجائب كل ذلك الاشتهار والشيوع

## ١٠ في انتقاد الكتاب

لا بدَّ من انتقاد الكتاب تتمة لوصفهِ وتفرقةً بين حقهِ وباطلهِ ومعرفة صوابهِ من خطائهِ وصحيحهِ من فاسدهِ فاقدمتُ على وعورة هذا المسلك وانا لست من طبقة المؤلف الذي فاق وسار ذكرهُ في الآفاق وابدع كما شاء في ما تحرَّاهُ من الفنون الشاملة بسيط الارض واديم السماء خشية ان اقصر في توفية البحث حقَّهُ فارمي بالغرض في الاقتصار على الثناء على الكتاب وعلى واضعهِ فالدينار تظهر فضيلتهُ من حكّهِ لا من ملاحة نقوشهِ الظاهرة

واول ما يؤخذ على المؤلف متابعتهُ بعض اهل السير والرواة في عزو الرائيَّة المفتتحة ( بربك ايها الفلك المدارُ ) الى ابن سينا البخاري والصواب انها لابن شبل البغدادي ومنشأ خلطهِ وخلط سواه وحدة الكنية والاسم فان كليهما يكنى بابي علي ويسمى بالحسن وحسبك الآن من الادلة ان ابا اصيبعة يثبتها للثاني في كتابهِ طبقات الاطباء

ومن هذا وهمهُ في ان جلق هي دمشق. قال في اثناء كلامهِ على تلك جفنة الغساني: « فلمَّا استوثق الملك بني جلق وهي دمشق وتنصَّر (١ هو وقومهُ » والصواب ان جلق غير دمشق (٢ وهذه لم يَبنها احد الغساسنة وقد ابان هذا الامر حضرة العلامة الاب هنري لامنس اليسوعي بما لا مردَّ عليهِ (المشرق ٣: ٤٣٨ و ٥٧٢ و ٦٥٨ )

---

١) اثبت صاحب المشرق نصرانيَّة غسان بما لا مردَّ عليهِ خلافًا لما زعمهُ المكاتب البغدادي في مجلة المقتبس (انظر المشرق ١٠ : ٥١٩ و ٥٥٤)

٢) ليس كل لغويي العرب على ان جلق هي دمشق كما زعمهُ البعض فان مثل ابن سيده في بيت المتنبي «وبركزها بين الفرات وجلَّقِ» يقول (جلَّق في الشام بقرب دمشق). وكفى بقولهِ حجة لا تدفع

ومنهُ زعمهُ في لون الفلك حيث قال: « ان الفلك في نفسهِ جسم ليس بضياء. وان الشمس والنهار يشرقان عليهِ كما يشرقان على الارض فاذا اشرقا عليهِ وهو مظلم رُئي (رُؤيَ) لونهُ لازورديًا ». وقد استدركهُ عليهِ بعض محشّي الكتاب فقال: « لو صحّ هذا القياس لما رُؤي لون الفلك اشد زرقة بالليل ولا شمس ولا نهار » قلت: وفي كلا القولين نظر من جهة جسميَّة الفلك ومن جهة زرقتهِ وفي كل منها آراء ليس هنا محلّ ايرادها. واما علة زرقة الجو فيرجح اليوم كثيرون انها ناشئة من انعكاس اشعة الشمس الزرقاء على الغبار الجوّي فتأمل

ومنهُ تعقبهُ ابا الريحان البيروني حيث قال: « انهُ يخرج من خليج القلزم خليج آخر يسمى بحر بربرا منسوب الى طائفة من الزنج » قال الكتبي: « وهذا منهُ وهم ». على ان الشريف الادريسي وياقوت الرومي وابا الفداء وسواه من جغرافيي العرب يسندون قول البيروني في هذا الخليج والمحدثون على ان المراد بهِ خليج عدن او خليج اجان

ومنهُ زعمهُ بالجن وتصحيحهُ هذر القدماء في وحدة الجن والملئكة « بان الجن غير الملئكة مخلوقون من سنخ غير سنخهم وهو النار » الى ان قال: « فان انكر قوم خلق الجن قهرتهم براهين المعقول وحجج القياس من ان الله تعالى انشأ خلق العالم من اربعة اجزاء جعلها اصولًا لمن خلق من العالم الحي الارض والماء والهواء والنار. والعالم نوعان علوي وسفلي والسفلي نوعان خلقهما من جزوين من الارض وهو ما عليها من الحيوان والثاني من الماء وهو ما فيهِ من السموك وهما هابطان لهبوط الارض والماء وظاهران لظهور اصليهما فاستمرَّ القياس فيهما وبقي العالم العلوي جزآن الهواء والنار وقد استقرَّ خلق الملئكة من الهواء. فاقتضى معقول القياس ان يكون خُلق الجن من النار لتكون الاجرام الاربعة اصولًا لخلق اجناس اربعة » وفي هذه الفقرة عدة مآخذ وحيث ان المقدمة من القياس فاسدة لزم بحكم الضرورة ان تكون النتيجة فاسدة كما يظهر بادنى تأُمل

ومنهُ انكارهُ البرهان الثابت على كروية الارض من « ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع نواحي الارض في وقت واحد بل يُرى طلوعها على النواحي المشرقية من الارض قبل طلوعها على النواحي المغربيَّة وغيبوبتها عن النواحي المشرقية قبل غيبوبتها عن المغربيَّة » وهو برهان لا يختلف فيهِ اثنان وامتراء المؤلف فيهِ في حين انهُ يقرُّ بكرويَّة الارض وسيرها من الغرابة بمكان

ومنهُ اعتقادهُ بما يجري مجرى الطلسمات كقولهِ « ان مدينة خبيص من مدن كرمان لا يمطر المطر فيها ابدًا الَّا خارج المدينة » وكقولهِ: « لا يوجد بمدينة حمص عقرب واذا أُخذ من ترابها وذُرَّ على العقرب ماتت » ومثلهُ « لا يدخل مدينة اعزاز من اعمال حلب حية واذا أُخذ وذُرَّ من ترابها ماتت لوقتها » الى غيرها من صنفها وهي من اوهام العوام

ومنهُ قولهُ في حظوظ الكواكب وهو بحرفهِ: « زحل حظهُ في الـ ٤ والـ ٨ لانهُ يدل على الارضين والعقارات... والحزن والموت. والمشتري حظهُ في الـ ٢ والـ ١١ لانهُ يدل على الاموال والنعم... واصناف السعادات. والمريخ حظهُ في الـ ٦ والـ ١٢ لانهُ يدل على العلل والمرض... والسجون. والشمس حظها في الـ ١٠ لانها تدل على العز والقوة والملك... والزهرة حظها في الـ ٥ والـ ٧ لانها تدل على احوال الاولاد والنساء... ».

وقولهُ في افراح هذه الكواكب وهو بلفظهِ: « زحل يفرح في الـ ١٢ وآفتهُ في الـ ٦. المشتري يفرح في الـ ١١ وآفتهُ في الـ ٥. المريخ يفرح في الـ ٦ وآفتهُ في الـ ١٢. الشمس تفرح في الـ ٩ وآفتها في الـ ٣. الزهرة تفرح في الـ ٥ وآفتها في الـ ١١... ». الى غير ذلك من القول بالخير والشرّ والاقبال والادبار المنوطة بالكواكب والاجرام وهي من الاباطيل التي ليس تحتها طائل وصدورها غريب عن قلم المؤلف الذي يهزأ باكاذيب العرب وترَّهات العوام ومخرقات اهل الفأل والتنجيم

على ان كل هذا طفيف والخطب فيهِ يسير بالنسبة الى ضخامة الكتاب وعذر المؤلف اظهر من بيانهِ في عصرهِ وحاشا ان يغض هذا من جانبهِ او يحطَّ من رفعة مقامهِ فان لهُ في جنب كل سيئة حسنات وقبالة كل زلة بدائع وآيات فلا عجب ان يُغتفر لهُ مثل هذه السيئات بشفاعة الحسنات وما هي بقليلة

## ١١ً في فوائد الكتاب

بقي ان ابسط لدى المطالع ما اتى بهِ المؤلف البارع في كتابهِ الرائع من جليل الفوائد وجزيل العوائد حتى جاء طبق اسمهِ مباهج الفكر ومناهج العبر. ولا عجب ان حاد عن طرق الصواب في بعض محتويات الكتاب فالجواد قد يكبو والفتى قد يصبو. ولا تُعدُّ الَّا هفوات العارف وتدخل الزيوف على اعلى الصيارف. وانت خبير ان التعقب على الكتب المطولة سهل بالنسبة الى تأليفها ووضعها وترصيفها بل ان التعقب على الكتب القديمة بغض النظر عن زمانها الذي كسدت فيهِ بضاعة الادب وقلَّ من ينضي

الى اكتساب المعارف ركاب الطلب ليس هو بالشيء الحسن عند نقّاد هذا الزمن كما لا يخفى على ذوي الاذهان

فالكتاب علمي ادبي . فالقسم العلمي يبسط المؤلف فيهِ كل ما عُرف في عصرهِ من اراء ومعارف العرب واليونان والسريان القدماء في ما لهُ اقل علاقة في بسيط الارض واديم السماء . والقسم الادبيّ يورد فيهِ كل مستعذب مستملح من نثر وشعر فائق نقي الديباجة متين التركيب عليّ الانشاء لا يخلو من نكتة رائعة او حكمة بالغة الى فقر اخرى ادبية نادرة في نيران العرب والليالي والايام المشهورة والسنين التي تُضرب بها الامثال وغيرها من اشباهها . وبين كلا القسمين لحمة ظاهرة متينة الاواخي لا غبار عليها . وكل هذا قلما اجتمع في كتاب من فنهِ من كتب العرب التي تتداولها ايدي القوم في هذه الايام

وتحت ذلك فوائد اخرى عديدة اجدرها واخلقها بالتعريف الفوائد اللغوية حيث يذكر طائفة كبيرة من الالفاظ اللغوية والاوضاع العربيّة البحتة في اسماء عالم الكواكب وعالم الارض وعالم الحيوان وعالم الحجار وعالم النبات . والفوائد الفلكية حيث يبسط معارف العرب في الافلاك والكواكب المتحيرة والثابتة ومن الغريب الماعهُ الى كروية الارض وسيرها قبل غليلاي بسنين عديدة . والفوائد الجيولوجية اذ يروي ما عرفوه من طبقات الارض وبحارها وجزرها وجبالها واقاليمها وان غلب عليها القدم فلا تخلو من طلاوة الجديد للباحث العصري . والفوائد الزراعية فيثبت آثار زراعة الحبوب والبقول والرياحين والاشجار عند العرب والرومان واليونان والسريان . والفوائد النسبية مثل سلائل سام وحام ويافث طبق ما ورد في الكتاب العزيز وفي اثنائها يثبت اولية الخلق لآدم ويفنّد اصحاب المذهب المخالف . والفوائد التاريخيّة ولاسيما اخبار العرب والترك والاكراد والصابئة فانهُ لا يشذّ فيها عن مهرة اصحاب الاخبار والرواة . والفوائد الجغرافيّة بالخصوص جغرافيّة بلاد المسلمين وعلى الاخص جغرافيّة مصر واعمالها والاندلس وخططها فانها لا نظير لها في كتب الرحل واصحاب آثار البلاد . وفوائد اخرى مثل اكتشافات العرب في التبّت والصين والهند واليونان واوقيانية والقطبين الجنوبي والشمالي وكل هذا بسطهُ بالطف اشارة دون ان يعتورهُ ادنى لبس او اشكال . وأقف عند هذا المدى خشية ملل القراء وكفى بهِ تعريفاً بكتاب

# بلاد سوريّة في القرن الثاني عشر

## وفقًا لرواية ابن جبير

نظر للاب هنري لامنس مدرّس الجغرافية الشرقيّة في المكتب الشرقيّ

## ١ تعريف رحلة ابن جبير

في السنة الهجريّة ٥٧٨ الموافقة لسنة الميلاد ١١٨٤ اعني سنتين قبل فتح السلطان صلاح الدين للقدس الشريف حضر من الاندلس رحّالة مسلم ليزور بلاد الشام. وكان السائح المومأ اليه يُدعى بابي الحسين محمّد بن احمد بن جبير الكنانيّ (١. كان تقلّد في بلاد المغرب والاندلس المناصب الشريفة وتقلّب في الاعمال المنيفة. فلمّا عاد الى وطنهِ دوّن اخبار سفرهِ الى الشرق (٢. وهذه خلاصة رحلتهِ: ركب ابن جبير البحر في سبتة مقلعًا الى الاسكندريّة على مركب للجنويين فمرّ على جزيرة سردانية فصقلّية فجزيرة اقريطش وبلغ الاسكندريّة بعد ٣٠ يومًا ثمّ طاف الصعيد ومال الى عيذاب فقطع بحر القلزم الى جدّة وسار منها الى مكّة فاتمّ فريضة الحجّ ثم زار المدينة ورحل منها الى العراق برًّا فوصل الى الكوفة ومنها الى بغداد. ثم كرّ راجعًا الى المغرب فمرّ بالموصل وبلاد الجزيرة الى ان بلغ منبج فدخل سوريّة وزار اولًا حلب ثم وادي العاصي ثم دمشق وصور وعكّة ومنها البحر الى الاندلس على احدى المراكب الجنويّة

ولا نتعقّب آثار المؤلف في كل رحلتهِ بل نكتفي بما كتبهُ عن سوريّة التي عليها مدار كلامنا. ووصفهُ لها يشغل في الكتاب نحو ٧٠ صفحة ونحن نقتصر درسنا على هذا

---

١) من احبَّ مطالعة ترجمة ابن جبير بالتفصيل عليهِ بمقدّمة العلّامة رَيْت (W. Wright) الذي تولّى طبع اسفارهِ ومقدّمة المستشرق الفاضل دي غوي الذي جدّد آخرًا طبع هذه الرحلة والى اعداد صفحاتها نشير. وليراجع خصوصًا ما كتبهُ عنهُ العلّامة سكياپارلّي (C. Schiaparelli) الذي نقل رحلتهُ الى الايطالية وسنعود الى ذكر ترجمتهِ . واطلب ايضًا ما كتبهُ المقري عنهُ في نفح الطيب

٢) ثم عاد ابن جبير الى انحاء الشرق فزارها ثلاثًا لكنّهُ لم يروِ في كتابهِ غير اخبار رحلتهِ الاولى

القسم فقط فنبيّن خواصَّهُ وفوائدهُ. وقد صرفنا اليهِ نظرنا بعد المقدسي لانَّ بين الكاتبين بوناً عظيماً في كلامهما عن سوريّة لا يكاد يجمعهما غير وحدة الموضوع. وكان الاول كما سبق القول وطنياً وكان ابن جبير اجنبياً غريباً. كتب المقدسي بصفة جغرافي مدقق امَّا ابن جبير فانهُ يكتب كتابة الرحّالة الذين يدوّن كلّ يوم ملحوظاتهِ في محفظتهِ كما أثرت فيهِ وعملت في قلبهِ. وقد اختلف ايضاً الكاتبان في اسلوبهما وغايتهما ولذلك تجد تعريفهما لبلاد الشام متبايناً وبينهما نحو القرنين. فانَّ المقدسي يقصد قبل كلّ من كتابتهِ الافادة والتعليم. امَّا ابن جبير فانهُ يتوخّى من كتابتهِ بهجة القرّاء وترويح البابهم. وكذلك تجد الاوّل كثير التدقيق محبّاً للضبط والايجاز. على خلاف الثاني الذي يطلق العنان الى قلمهِ فلا يحصر نفسهُ في قالب او يقضي عليها بخطّة معلومة فتراه يمزج تفاصيل رحلتهِ بما يعاينهُ ويسمعهُ وربّما ادمج وصفهُ بالاخبار والماجريات التي جرت ابّان رحلتهِ او نقلها عن الرواة. كما فعل بذكر صلاح الدين (ص ٣٠٠–٣٠١). فانهُ يروي عنهُ اموراً بائعةً عن ذلك الملك العظيم الذي كان يحاصر حينئذٍ حصن الاكراد

وكلا الكاتبين يدّعي مع ذلك انهُ لا يروي غير ما شهدهُ بالعيان. على انَّ المقدسي يشمل في وصفهِ كل انحاء سوريّة بينما يقتصر ابن جبير على ذكر الامكنة التي احتلّها في سفرتهِ وان كانت تلك الامكنة ليست قليلة لأنَّ الرحّالة تفقّد معظم مدن سوريّة الشهيرة في زمانهِ اللهمَّ ألَّا جهات فلسطين وربّما زاد في اوصافهِ لمدن الشام اموراً وفوائد جغرافيّة فاتت المقدسيّ او ضرب عنها صفحاً

وممّا نبّهنا اليهِ الخواطر في كتاب المقدسي فانتقدناهُ عليهِ استعمالهُ احياناً للسجع في اوصافهِ. لكنَّ المقدسيّ في ذلك لا يتجاوز حدود كَتَبة زمانهِ ولا يبالغ كثيراً. امَّا ابن جبير فانَّ السجع يغلب على انشائهِ فيواصلهُ في صفحات متتالية. ومن المعلوم انَّ السجع يؤدي بصاحبهِ الى حشو الكلام والى استعمال الغريب والى التصنّع فيتعد الكاتب عن طرائق الكتابة الساذجة المألوفة ويبدلها بالمعاني المستغلقة والتعابير المستبهمة وكان السجع قليلاً في عهد الجاهليّة وفي قرون الاسلام الاولى ثم تكاثر بانحطاط فنون الكتابة. وما نقولهُ بالاجمال يصحّ في سجع ابن جبير ألا ترى مثلاً كيف وصف مدينة حلب بما يشنّف اذن السامع دون ان يجديهُ نفعاً كبيراً في معرفتها قال (ص ٢٥٠):

« بلدة قدرها خطير . وذكرها في كل زمان يطير . خطّابها من الملوك كثير . ومحلّها من

النفوس اثير . فكم هاجت من كفاح . وسلّت عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع . بائنة الارتفاع . معدومة الشبه والنظير في القلاع . تنزّهت حصانةً ان تُرام او تستطاع . قاعدة كبيرة . ومائدة من الارض مستديرة . . . »

الى آخر ما هناك من الكلام المسجّع ( اطلب نخب الملح ٣ : ٩٠ ) الذي ليس تحتهُ كبير امر . ومثلهُ في وصف بساتين دمشق ( ص ٢٦٠ ) :

« ظلّ ظليل . وماء سلسبيل . تنساب مذانبهُ انسياب الاراقم بكلّ سبيل . ورياضٌ يحيي النفس نسيمها العليل . تتبرّج لناظريها بمجتلى صقيل . وتناديهم هلمّوا الى معرَّس الحسن ومَقيل . قد سئمت ارضُها كثرة الماء . حتى اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك الصمّ الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل باردٌ وشراب . قد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر . . . »

وممّا يستحبُّهُ القارئ في مطالعة رحلة ابن جبير كما في اخبار الاسفار عموماً انّ كاتبها يشير الى خواطر نفسهِ ويترجم عن احوالهِ الشخصيَّة وشواعرهِ لدى معاينتهِ الآثار والبلاد فمثال ذلك انهُ اذا رأى بلداً في الشام تذكَّر نظيرهُ في الاندلس وقاس ذلك بهذا لما يجد فيهما من الشبه . كما فعل بحمص التي ذكَّرتهُ اشبيلية . قال ( ٢٥٨ ) :

« وتجد في هذه البلدة عند اطلالك عليها من بُعد في بسطها ومنظرها وهيئة وضوعها بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خيالهُ وبهذا الاسم سُمِّيت في القديم وهي العلَّة التي اوجبت نزول الاعراب اهل حمص فيها حسبما يُذكر وهذا التشبيه وان لم يكن بذاتهِ فانهُ لمحةٌ من احدى جهاتهِ »

ولهُ قول كهذا في قنسرين وهو يعارضها بجيَّان الاندلس ( ص ٢٥٤ ) :

« وتشبيها من البلاد الاندلسيَّة جيَّان ولذلك يُذكر انَّ اهل قنَّسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيَّان تأنُّساً بشبه الوطن وتعلّلا بهِ مثل ما فُعل في اكثر بلادها حسب ما هو معروف ( ١ ) »

هذا وانَّ في انشاء ابن جبير تعابير والفاظ تفرَّد بها تُشعر بأصلهِ المغربيّ . وفي النصوص التي نثبتها عنهُ دليل على ذلك

ومهما كان الامر من محاسن ابن جبير ونقائصهِ فانَّهُ لمقرَّر انَّ هذا الكاتب احد

١ ) اطلب معجم البلدان لياقوت ( ٣ : ١٠٥–١٠٦ ) ولهُ ملاحظة كهذه

ارباب القلم يعتبره المستشرقون اعتبارًا عظيمًا . قال العلّامة رورخت في كتابهِ المعنون مكتبة جغرافي فلسطين (١: « انَّ رحلة ابن جبير غاية في الخطر لمعرفة بلاد الشام » . وقد ادرجت جمعيَّة الكتابات والفنون في باريس قسماً كبيرًا من هذه الرحلة في مجموع مؤرخي الحروب الصليبيَّة الشرقيين (٢ لِما أودع الكتاب من الفوائد التاريخيَّة عن الامور الجارية في زمانه . وقال الاستاذ سكياپارلّي في مقدّمة ترجمة ابن جُبير انهُ « اذا قوبل بينهُ وبين غيرهِ من رحّالي العرب كالمقدسي وابن بطوطة وغيرهما لا يوجد ابن جبير دون احد منهم في شيء من حيث الضبط والدقّة وحسن الاسلوب وخطر الامور المدوَّنة » هذا ما قالهُ سكياپارلّي وحكمهُ صوابٌ وان كنّا نرى انَّ المقدسيَّ اعلى طبقةً من ابن جبير . لكنَّنا نقدّر ايضًا ابن جبير قدرهُ كما اقرَّ بفضلهِ ابن بطوطة وغيرهُ ممَّن استشهدوا بهِ ونقلوا عنهُ

وممّا افادنا ابن جبير تعريفهُ لاحوال اهل الشام ووصفهُ لعاداتهم كما لحظها في تجوُّلهِ بينهم فدوَّن ملحوظاتهِ فيها وبما انهُ كان غريباً تجدهُ يتسع في بيان امور لا ينصرف اليهِ نظر اهلها ولولاهُ لجهلناها تماماً . فمن ذلك عدَّة اشياء ذكرها في دمشق قد اخنى عليها الزمان منذ زمن طويل كالبنكام الذي رآهُ هناك (ص ٢٦٩—٢٧٠) وكنيسة النسر التي وصف خصائصها (ص ٢٦٣) واستغرب حجارتها فقال :

« وفي الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ولا تنقلها الفيَلة فضلًا عن غيرها فالعجب كلّ العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السموّ وكيف تمكّنت القدرة البشريَّة فسبحان من ألهم عبادهُ الى هذه الصنائع العجيبة ومعينهم على التأتّي لما ليس موجودًا في طباعهم البشرية ومظهر آياتهِ على يد من يشاء »

فليت شعري ما عساهُ كان قال ابن جبير لو رأى حجارة بعلبك او عاين هيكلها العجيب الّا انَّ مسيرهُ لم يؤدِّ بهِ الى تلك المدينة (٣

(١ اطلب Rœhricht: *Bibliotheca Geogr. Palæstinæ*, p. 42

(٢ اطلب Historiens des Croisades, III, 442-456

(٣ ذكر ابن جبير بعلبك (ص ٢٥٨) مرَّة واحدة دون وصفها وألحق بذكرها قولهُ « اعادها الله » كانهُ ظنَّ انها في ايدي العدوّ . وهو وهمٌ ظاهر لانَّ بعلبك لم تحصل قطّ في حوزة الفرنج

## ٢ سوريّة وابن جُبير

رأيتَ في الفصل السابق الطريقة التي توخّاها ابن جبير في تسطير رحلتهِ وما ضمّنها من الفوائد . فبقي علينا ان نرافقهُ في سياحتهِ في بلاد الشام فنلتقط بصحبتهِ بعض المعلومات عن سوريّة في مختتم القرن الثاني عشر ولا غرو فانَّ دليلنا فكهُ النفس متوقّد الذهن فيبهج رفقتهُ ويفيدهم معاً

بعد ان اجتاز ابن جبير بلاد الجزيرة قطع الفرات فكان اوّل ما لقيهُ في وجههِ من بلاد الشام منبج . فاحس السائح بجواد قلمهِ يُركض فاسترسل في وصفها بالسجع كمألوف عادتهِ (ص ٢٤٨) ولم يذكر من خواصها الّا النزر القليل ممّا لا يُشفى بهِ العليل ولا يُروي الغليل . ثم سار من منبج الى حلب فوصفها وصفاً طويلاً روينا شيئاً من الفاظهِ المبهرجة . وألحق هذا الوصف باشتقاق اسم حلب فقال (ص ٢٥١) :

« كانت قديماً في الزمان الاوّل ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل بغُنَيمات لهُ فيحلبها هنالك ويتصدّق بلبنها فلذلك سُمّيت حلب والله اعلم »

وهذا الاشتقاق في الغرابة بمكان ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٤) مرتاباً في صحّتهِ وقد زاد عليهِ ابن بطوطة ما هو اغرب فجعل بدلاً من الغنم بقرةً شهباء . قال : فكان اذا حلبها ابراهيم قيل « حلبَ ابراهيمُ الشهباء » . وليس في كل هذه الاشتقاقات كما ترى ذرّةً من الصحّة وانما هي مشابهات لفظيّة لا طائل تحتها . ومثلها اشارة ابن جبير الى اشتقاق اسم حماة من حَمَى يحمي (ص ٢٥٥)

ومن ملحوظات ابن جُبير في مسيرهِ من حلب الى دمشق (ص ٢٥٤) انَّ « خانات هذا الطريق كأنّها القلاع امتناعاً وحصانةً وابوابها حديد وهي من الوثاقة في الغاية » وكفى بهذا دليلاً ناطقاً على احوال بلاد الشام في عهدهِ . وقد كرّر الرحّالة مثل هذا القول غير مرّة اطلب مثلاً قولهُ في خان السلطان (ص ٢٥٩)

ثم يذكر ابن جبير في طريقهِ من حلب الى حماة « جبل لبنان » على حسب عادة الاقدمين الذين كانوا يطلقون هذا الاسم ليس فقط على لبنان الحالي بل ايضاً على جبال النصيريّة الواقعة في شمالهِ (١ وجعل في سفح هذا الجبل (ص ٢٥٥) « الملاحدة

١) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ٢ : ٢-١٠)

الاسماعيليَّة ، وذكر شيئاً من بدعتهم . امَّا لبنان الحالي فقد عرَّفهُ ابن جبير بما حرفهُ (ص ٢٨٧):

« وهذا الجبل من اخصب بلاد الدنيا فيهِ انواع الفواكه وفيهِ المياه المطّردة والظلال الوارفة »

واضاف الى قولهِ ما يؤيد قول المقدسيّ في العبَّاد المنقطعين الى الله في لبنان فقال: « وقلَّ ما يخلو من التبتيل والزهادة »

ثم مرَّ ابن جبير في رَسْتن (ص ٢٥٧) فاشار الى آثارها العظيمة وتخريبها على يد عُمر بن الخطَّاب ثم قال: « ويذكر القسطنطينيُّون انَّ بها اموالًا مكنوزة والله اعلم» وقولهُ هذا صدًى لمزاعم العامَّة في كل زمان عن المطالب والدفائن المكنوزة في الاخربة القديمة وهو شائع في انحاء سوريّة الى عهدنا هذا وربَّما صدَّقهُ الجهَّال فاخربوا بسببهِ عدَّة آثار جليلة حطَّموها طمعاً في ما تحتها من الكنوز المرصودة على زعمهم

وممَّا اثنى عليهِ في حمص محاسن بساتينها وطيب هوائها وذكر قبر خالد بن الوليد ثم قبر ابنهِ عبد الرحمان الذي اشبه اباهُ بجليل اعماله واضاف اليهما قبر عبيد الله (١ بن عمر الذي قُتل في صفّين . ويؤخذ من قول ابن جبير انَّ جثَّة عبيد الله نُقلت الى حمص بعد موتهِ . وكانت حمص على عهد ابن جُبير فقدت كثيرًا من محاسنها كما لحظ الكاتب حيث قال (ص ٢٥٨):

« واسوار هذه المدينة في غاية المتانة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصمّ السود وابوابها ابواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والإنافة تكتنفها الابراج المشيَّدة الحصينة وأمَّا داخلها فما شئت من بادية شعثاء خلقة الارجاء ملفَّقة البناء . لا اشراق لآفاقها . ولا رونق لاسواقها . كاسدة لا عهد لها بنفاقها »

ثم واصل المسافر سيرهُ من حمص الى دمشق . وكانت الطريق بينهما قليلة العمران كما في ايَّامنا اللهمَّ الَّا ثلاث او اربع قرى التي احتأبها كقارة التي لم يجد فيها غير النصارى (ص ٢٥٩) والنبك . وبعد اجتيازه في خان السلطان فثنيَّة العُقاب فقُصَير دخل الفيحاء . فاطلق العنان لقلمهِ في وصفها . وقد اتَّسع في ذكر محاسنها واطنب ايَّ اطناب ولولا

---

١) هي الرواية الصحيحة وليس كما روى الاستاذ سكياپارلي في ترجمتهِ الايطالية غير مرَّة « عبد الله » فانَّ عبد الله بن عُمر مات وقبر في مكَّة كما اتَّفق عليهِ كافة المؤرخين

مبالغتهُ في السجع لقلنا انَّ كلامهُ من اوفى ما جاء في بيان صفاتها لا نستثني من ذلك الَّا بعض الكتب الخاصّة التي وُضعت في فضائل دمشق . ودونك ما روى عن بعض ابنيتها قال ( ص ٢٨٣ ) :

« وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة . وبها مارستانان قديم وحديث والحديث احفلهما واكبرهما وجرايتهُ في اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا ولهُ قَوَمة بايديهم الأزمَّة المحتوية على اسماء المرضى والنَّفَقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك والاطبَّاء يبكّرون اليهِ في كلّ يوم ويتفقَّدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الاسم لكنَّ الاحتفال في الجديد اكثر . وهذا القديم هو غربيّ الجامع المكرَّم . وللمجانين المعتقلين ايضًا ضربٌ من العلاج وهم في سلاسل موثقون نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر »

وفي كتاب زبدة كشف الممالك ( ص ٦٥ ) ما يشبه هذا الوصف في مارستانات دمشق

وممَّا يجدر بنا ذكرهُ الميقاتة اي الساعة التي كانت على باب جيرون اثبت المشرق سابقًا ( ٣ : ٩٨٥ ) كلامهُ فيها وهي من عجائب ذلك الزمان

ولولا ضيق المكان لاثبتنا شيئًا ممَّا ذكرهُ ابن جبير عن الجامع الكبير الذي اتَّسع في وصف ارخامهِ الملوَّنة وبلاطهِ المذهَّب المنقوش بالفصوص البديعة وكانت الفسيفساء تزين جدرانهُ الخارجة المتَّصلة بصحنهِ ( ص ٢٦٨ ) فكانت اشعَّة الشمس تصيبها وتنعكس الى كل لون منها فيأخذ منظرهُ بالابصار

وممَّا يزيد بهِ انذهال القارئ وصفُ ابن جبير لمساجد اخرى عجيبة البنيان بديعة النقوش والارخام وجدها في قرى الغوطة فافاض في محاسنها

ثم تابع ابن جبير مسيرهُ من دمشق الى عكّة ( ص ٢٩٨ — ٣١٠ ) مارًّا بداريَّة ثم بانياس ثم وادي تبنين بين حصنيْ هونين وتبنين حتى بلغ ساحل الشام . ووصفهُ لطريقهِ غاية في الظرافة والاعتبار يصوّر احوال ذلك الزمان تصويرًا بهيًّا ويمثّل للعيان ما كان يجري في انحاء الشام من الامور الخطيرة . وكان ابن جبير في صحبة قفل من التجَّار يسيرون بامان في بلاد العدوّ لاتّفاق لطيف جرى بين الفريقين ترويجًا لسوق التجارة ولطفًا بالعباد (١ وهذا لعمري دليل على ترقّي التمدّن في ذلك العهد وفيهِ عبرة

١) ولابن جبير في هذا المكان عدَّة تفاصيل وبيان عادات مألوفة تُميل القرَّاء الى مطالعتها لما تتضمَّن من الفوائد لتعريف احوال ذلك الزمان

لاهل زماننا الذين لم يتمكّنوا من صيانة حقوق التجارة في وقت الحروب رغماً عمّا اقاموه من مؤتمرات السلم

ولابن جبير كلام حسن في وصف صور نثبتهُ هنا ليتمكّن القارئ من المقابلة بينهُ وبين وصف المقدسي (راجع الصفحة ٦٩٠) قال (ص ٣٠٤):

« امّا حصانتها ومنعتها فاعجب ما يحدَّث بهِ وذلك انّها راجعة الى بابين احدهما في البرّ والآخر في البحر وهو يحيط بها الّا من جهة واحدة فالذي في البرّ يُفضَى اليهِ بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلّها في ستائر مشيدة محيطة بالباب. واماّ الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدَين الى ميناء ليس في البلاد البحريَّة اعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الّا عند ازالتها وعلى ذلك حرّاس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الّا على اعينهم فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوقع. ولعكّة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وانّما ترسي خارجها والمراكب الصغار تدخل اليها فالصوريّة اكبر واجمل واحفل »

وبقي ابن جبير في عكّة حتى اقلعت منها سفينة جنويّة عادت بهِ الى المغرب. وكان الركّاب ألفَين وليس هذا العدد مفرطاً ونحن نعلم انّ بعض السفن الحربيَّة كانت تحمل ١٢٠٠ جنديّ ما عدا الخيل. ومنها ما كان يركبها الزوّار في عدد ١٥٠٠ (١. وبين القوانين التي وُضعت للبحريين في ذلك العهد انهُ لا يسوغ ان يُتجاوز هذا العدد الاخير (٢ ومن المعلوم انّ سفن ذلك الزمان كانت شراعيَّة لا يمكنها السفر الّا في فصول محدودة وقد نبَّه ابن جبير الى هذا الامر بقولهِ (ص ٣١١):

« وفي مهبّ الريح بهذه الجهات سرّ عجيب وذلك انّ الريح الشرقيَّة لا تهبُّ فيها الّا في فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون الّا فيهما والتجّار لا ينزلون الى عكّة بالبضائع الّا في

١) اطلب ما جاء في هذا الصدد في كتابي مرشان وپرتس:
J. Marchand : *De Massiliensium cum Eois populis commercio*, p. 46 ; H. Prutz : *Kulturgesch. d. Kreuzzüge*, p. 105

٢) اطلب كتاب شوب في تاريخ تجارة الشعوب الرومانية مع سواحل البحر المتوسط
A. Schaube : *Handelsgesch.* d. *roman. Voelker d. Mittelmeergebicht*, p. 202.

راجع ايضاً مقالتنا في تعريف هذا الكتاب (المشرق ٦: ٩٢٢)

هذين الفصلين والسفر في الفصل الربيعيّ من نصف ابريل وفيهِ تتحرّك الريح الشرقيّة وتطول مدّتها الى آخر شهر مايه واكثر واقل بحسب ما يقضي الله تعالى بهِ والسفر في الفصل الخريفيّ من نصف اكتوبر وفيهِ تتحرّك الريح الشرقيّة ومدّتها اقصر من المدّة الربيعيّة وانما هي خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيهِ تختلف والريح الغربية اكثرها دواماً فالمسافرون الى المغرب والى صقلّية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقيّة في هذين الفصلين انتظار وعدٍ سابق فسبحان المبدع في حكمتهِ المعجز في قدرتهِ لا إله سواه »

وكانت حياة الركّاب على تلك السفن الكبيرة ذات حركة وتقلّبات كأنّها المدن الصغرى تمثّل كلّ اطوار المعيشة اليوميّة . وممّا اثبتهُ ابن جبير في رحلتهِ وصف عيد اقامهُ النصارى على ظهر السفينة بابّهة عظيمة ورونق عجيب قال ( ص ٣١٣ ) :

« وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب وهو اوّل يوم من نونبر ( كذا ) العجميّ كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا لهُ في إسراج الشمع وكاد لا يخلو احد منهم صغيرًا او كبيرًا ذكرًا او انثى من شمعة في يدهِ وتقدّم قسّيسوهم للصلاة في المركب بهم ثم قاموا واحدًا واحدًا لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم والمركب يزهر كلّهُ اعلاه واسفلهُ سرجاً متّقدة وتمادينا على تلك الحالة اكثر تلك الليلة »

وكان المركب في تلك الاثناء ابتعد عن سواحل الشام واقترب من جزيرة صقلّية فلا حاجة ان نتعقّب آثار سائحنا بعد ذلك وانّما ندوّن هنا بعض الملحوظات العموميّة التي تُستفاد من رحلة ابن جبير بخصوص الشام ومن اقوالهِ ما يفيد ويروّح الالباب معاً

فمن ذلك انهُ يستعمل اسماء الشهور القمريّة والروميّة معاً كما رأيت في النصّ الاخير . ومنها ما لحظهُ في اهل الشام من المبالغة في اتخاذ الالقاب والتعظيم في السلام بما لا أثر لهُ اليوم قال ( ص ٢٨٨ ) :

« ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبةً بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة واذا لقي احدٌ منهم آخر مسلّماً يقول جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة كنايةً عن السلام فيتعاطون الحال تعاطياً والجدُّ عندهم عناء . مغرب وصفة سلامهم ايماء الركوع او السجود فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربّما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحطّ وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هويّاً وهذه الحالة في الانعطاف الركوعي في السلام كنّا عهدناه لقينات النساء . . . فيا للعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الاذناب عندهم والرؤوس ولم يميّز لديهم الرئيس والمرؤوس . . . »

وقد اثنى في محلّ آخر على احتفاء اهل الشام بالضيوف وحسن معاملتهم للغريب فقال (ص ٢٧٨):

« فالغريب المحتاج هنا اذا كان على طريقة مصونٌ محفوظ غير مريق ماء الوجه وسائر الغرباء ممّن ليس على هذه الحال ممّن عهد الخدمة والمهنة يُسبَّب لهُ ايضاً اسباب غريبة من الخدمة اما بستان يكون ناطورًا فيهِ او حمّام يكون عيناً على خدمتهِ وحافظاً لاثواب داخليهِ او طاحونة يكون امينًا عليها او كفالة صبيان يؤديهم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم الى غير ذلك من الوجوه الواسعة »

ومن ثم يدعو اهل وطنهِ ليأتوا بلاد الشام لينتجعوا خيراتهِ العميمة قال (٢٨٥):

« فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرَّب في طلب العلم فيجد الامور المعينات كثيرة فاوّلها فراغ البال من امر المعيشة وهو اكبر الاعوان واهمّها فاذا كانت الهمّة فقد وُجد السبيل الى الاجتهاد ولا عذر للمقصّر الّا من يدين بالعجز والتسويف. . . فهذا المشرق بابهُ مفتوح لذلك فادخل أيّها المجتهد بسلام وتغنّم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والاولاد ويُقرع سنّ الندم على زمن التضييع والله يوفّق ويرشد لا اله سواه. . . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقيّة كلّها الّا مبادرة اهلها لاكرام الغرباء وايثار الفقراء ولاسيما اهل باديتها فانك تجد من بدارهم الى برّ الضيف عجباً كفى بذلك شرفاً لها وربّما يعرض احدهم كسرتهُ على فقير فيتوقّف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول: لو علم الله فيَّ خيرًا لاكل الفقير طعامي. لهم في ذلك سرٌّ شريف »

وفي كل هذه الاقوال ما يدلّ على اعتبار ابن جبير لاهل الشام وارتياحهِ لسجاياهم الطيّبة

*

كفى بهذه الامثلة شاهدًا على اقتدار المؤلف وخواص كتابهِ وحسن نظرهِ بالامور وهذا ما حمل كثيرين على نقلهِ الى اللغات الاوربيّة بتمامهِ او باقسام منهُ. ومن ذلك ترجمة كاملة ايطاليّة نشرها في العام المنصرم العلّامة سكياپارلي (١ وقد تصفّحنا هذه الترجمة فوجدناها بالاجمال مضبوطة جامعة بين الامانة وحسن الذوق. وقد توصّل المترجم الى ان يزيل اللَّبس والشبهات عن عدّة مواضع كان مسخها النسّاخ فتحقّق روايتها الاصليّة واخرج معناها الصحيح. بيد انّنا كنّا وددنا لو ذيّل جناب الناقل ترجمتهُ

---

١) اسمها

Jbn Gubair : *Viaggio in Ispagnia, Sicilia, Siria e Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto.* Roma, 1906, XXVII—412.

بحواشٍ اوفر وملاحظات اوسع . وقد وقع مع ذلك في هذه الترجمة بعض اغلاط منها (ص ٢٥٠) انهُ لم يفرق بين الواقعة الواقعة في جوار حمص وتحديد المجاورة لدمشق ومن ثم ليس «النهر الجاري امامها» نهر العاصي كما ظنَّ . وقد كرَّر هذا الغلط في محل آخر (ص ٤٠٠) — وكذلك وهمَ (ص ٣٨٧) بزعمهِ انَّ باب الجابية في دمشق معناهُ باب الحَوْض . وانَّما دُعي بهذا الاسم لانهُ كان باب يؤدي الى الجابية وهي حاضرة بني غسَّان . الَّا انَّ هذه الاغلاط لا تمسُّ في شيء قدر هذه الترجمة التي تولَّى عملها . كما انهُ جمع في مقدَّمتهِ من الافادات في تعريف المؤلف ما لم يبلغهُ احد قبلهُ . هذا فضلًا عن الفهارس التي ألحقها بالكتاب . فنثني اذن الثناء الطيّب على الترجمة الايطاليَّة الحديثة التي قرَّبت منافع ذلك التأليف الذي يستحقُّ درساً خصوصيًّا لكثرة مضامينهِ وتأثيرهِ في الكتبة التابعين

هذا وكنَّا في وشك الانتهاء من كلامنا على ابن جبير اذ بلغتنا الطبعة الثانية من كتاب رحلتهِ التي تولَّاها ذلك المستشرق الهام السيد دي غوي (de Goeje) صاحب للطبوعات الشرقيَّة المتعدّدة (١ وحسبك باسمهِ دليلًا على مزايا هذه الطبعة التي تفوق الطبعة الاولى مع ضبطها . ومن محاسن هذه الطبعة الجديدة انَّ جناب وليّ العمل اثبت الاصلاحات التي تركها الطابع الأوَّل المسيو رَيت واضاف اليها تنقيحات جديدة . وقد ابدى المسيو دي غوي اسفهُ على عدم حصولهِ على نسخة ثانية من الرحلة اشار اليها المسيو سكياپارلّي وذكر وجودها في مراكش . والحقّ يقال ان هذه الرحلة لا يُعرف لها حتى الآن الَّا نسخة فريدة فلو امكن مقابلتها على نسخة ثانية لأستطاع تحسينها وزيادة ضبطها وعلى كلّ حال نهنّي الدكتور دي غوي ونشكرهُ على هذه الخدمة الجديدة التي ألحقها بخدمهِ السابقة للآداب العربيَّة لاسيما للآثار الجغرافيَّة جازاهُ الله الف خير ونفع بهِ اهل وطننا الذين يجدون في مطبوعاتهِ معلومات لا تحصى عن بلاد الشام في غابر الاعصار

(١) هذا عنوانهُ :
E. J. W. GIBB MEMORIAL. vol. V. TRAVELS OF IBN JUBAIR. (Wright's Text). revised by M. J. de Goeje, *Leyden*, E. J. Brill, 1907. LIII—363

## سيرة الحبر الطيّب الذكر

# عبدالله قراعلي الماروني الحلبي

للقس توما البودي نشرها بالطبع لاوّل مرّة وعلّق حواشيها الاب انطون رباط اليسوعي (تتمّة)

وماذا اقول عن القس باسيل الهدناني (١ المكنّى بالنوّاح في رهبنتنا الذي استمرّ مجاهدًا انوّف من اربعين سنة وبالغ في السيرة شي يطول شرحه . وعن سليمان الشنعيري (٢ وحنا دوين (٣ فالاول منهما انبأ عن موته قبل بشهرين واستدام يخبر بهِ الى يوم وفاته وانا كنت خادمه في مرضه . امّا الثاني حين دفن سليمان المذكور فالمشار اليهِ انبأ عن موته للرئيس وكان ذلك امام الرهبان انهُ بعد اربعين يومًا من دفن سليمان ينتقل هو . وهكذا صار . وهذا حنا المذكور ما رأيتهُ قط يسمع القداس الّا وهو باكٍ وكان يهرب من الكلام البطال قولًا وسمعًا وكانت قراءته الروحية في قلايته في الانجيل دائمًا فيما يخصّ الآلام . وعند قراءته كان يذرف الدموع . فلنبقِ القس حنا الباني (٤ وعبدالله البشراني (٥ اللذين بعد وفاتهما ظهروا الى البعض من الآباء واخبرا عن السعادة التي حصلا عليها . وقد اقتصرنا تسمية كثيرين غيرهم لئلا نطيل الشرح فهؤلاء جميعهم هم اثمار رشد عبدالله والان يشاهدونه في السماء (٦

---

١) البسهُ الاسكيم الاب عبدالله قراعلي الرئيس العام سنة ١٧٠٠ في دير مار اليشع

٢) لبس الاسكيم من يد الاب عبدالله قراعلي في ١٥ آب سنة ١٧٠١ في دير مار اليشع وتوفاه الله في ٢٧ نيسان ١٧٠٧ ولهُ من العمر ٣٣ سنة

٣) من غزير من عائلة زوين لبس الاسكيم من يد الرئيس العام في ٢٠ ت ٢ سنة ١٧٠٠ وتوفاه الله في الدير ذاته في ١٨ حزيران ١٧٠٧ ولهُ من العمر ٥٩ سنة

٤) لبس الاسكيم في ١ حزيران ١٦٩٨ في دير مُرت مورا وتوفاه الله في دير مار اليشع في ١٧ نيسان ١٧٠٦ وهو اول من توفي من الرهبان

٥) لبس الاسكيم مع حنا الباني وتوفاه الله في دير مار يوحنا رشميا في ٢٥ ت ٢ سنة ١٧٠٦

٦) قال مجمع نشر الايمان في رسالة تعليمية بعث بها للرهبان البلديين (٤ شباط ١٩٠٥) ذاكرًا فضائل هؤلاء الاباء الاوّلين : « وليذكروا [ الرهبان ] ايضًا ما تحمّل اباؤهم من المشاق والعذابات فكانوا اغنياء في الفضيلة فحيوا في اعقابهم . فليتبعوا آثارهم ويكونوا ميراثًا مقدسًا لهم ويضيئوا كالنجوم في افق الكنيسة اذ يستنيرون بشهامة امام الرب بالروح والدعوة التي دُعوا اليها »

فعبدالله كان عدو الكذب والنفاق وكان ذا عدل وقسط بهذا المقدار حتى اذا حدث حادث لاحد من العزيزين عنده في الرهبنة كان يحكم عليهِ بالعدل بشجاعة هذا مقدارها حتى ولو عرف انهُ يخسر مهما كان لهُ لم يبالِ. وسوف يتبرهن لك ذلك في سيرهِ وهو مطران. ومن خصوص فضيلة ايمانه ورجائهِ في الله كان يفوق ادراكي وادراك غيري واقرّ اني عاجز عن تبرهن ذلك

فحين اخذه المشايخ الى عند البطريرك لكي يرسمه حسب امره فبعد وصولهم الى قرية عجلتون حيث كان البطريرك يستنظره حدثت مخاصمة بين المشايخ وهي هذه: ان المشايخ كانوا حلفين والحلفان يريدان ان يكون مطرانهما. اما مطران حلب مخائيل البلوزانيّ الاصل (١ الذي كان ساكناً في طاميش ومسمى في اولاد ابي ناصيف (٢ لما عرف برسامة المذكور توجه الى عند البطريرك ليكون من الراسمين فهذا المذكور توهم في رسامة عبدالله انهُ اذا صار مطراناً ربما الحلبيون في حلب يطلبونه ليكون هو مطرانهم ويخسر هو رعيته حلب. وسبب هذا الوهم هو ان في تلك الايام كان الاساقفة في يد البطريرك ينقل ويغير على خاطره وهذا الامر على القول درج في الطائفة حين ابتدوا يرسمون بطاركة من تلاميذ المدرسة (٣. فحلف من المشايخ المكنّين باولاد ابي ناصيف طلبوا من عبدالله انهُ يكتب على حاله تمسك انهُ ما يطلب رعية حلب ولا يقبلها ولا ينزل الى حلب بنوع ما وان نزل يكون عنده خسارة مبلغ دراهم ٣٠٠٠ غرش. فعبدالله اذ كان مرامه ان تبطل رسامته فحضن الفرصة وصرخ بصوتٍ عالٍ: لا اكتب ولا ارتسم. امّا الحلف المكنّى باولاد ابي نوفل والجميع هم خوازنة اشتدوا ضد الاوّلين وعظمت المخاصمة بينهم بهذا المقدار حتى كل واحد من الحلفين ركض على سلاحه. فلما رأى البطريرك والمطارين ذلك ارغموا على عبدالله وامره البطريرك امراً ان يقبل. فما امكن بل قوله كان هكذا: انا لا اريد الرسامة ولا طلبتها كيف ارتسم بسيمونيا تحت وعد ووعيد. ودامت هذه المخاصمة

١) جملهُ عمه البطريرك جبرائيل البلوزاني سنة ١٧٠٤ خاتماً لهُ على الابرشيّة الحلبيّة

٢) اطلب كتاب الاعيان في اخبار لبنان (ص ٨٩)

٣) هذه مسألة تقتضي شروحاً طويلة نكتفي منها بالاشارة الى المجمع اللبناني سواء كان في المتن (قسم ٢ باب ١٤ وقسم ٣ باب ٤–٦) او في الذيل (الفصل ٤١)

يوماً وليلاً. اخيراً لتنطفئ هذه الشرور والمخاصمات كتب عبدالله صكّاً ومضمونه : انا عبدالله اعطيت قولاً وقراراً انني ما اتغير عن رعيتي ولا اقاوض بغيرها وبالخاصة رعية حلب. هذا الذي كتبه من فطنته لكي يرجع المشايخ عن المخاصمة. فحينئذٍ ارتفع القال والقيل ورسموه في كنيسة عجلتون وصار ذلك في سبعة عشر يوم من شهر ايلول سنة ١٧١٦ الف وسبعماية وست عشرة مسيحية. وبعد ايام قلايل جداً واجهته انا في عجلتون وحين واجهته اعطاني منشوراً من البطريرك يعقوب لجمعنا بهِ يأمر ان نجتمع ونقيم رئيساً عاماً ومدبرين ونتوجه الى عنده ليثبتهم وعلى هذا السند عملنا مجمعنا واقيم فيهِ جبرائيل فرحات رئيساً عاماً. وباقي مجروية المجمع والحوادث التي صارت بعدها تجدها محررة في تواريخ الرهبنة

اما عبدالله بما ان ظن الجميع فيهِ انهُ رجل متوحد محب التقشف والانفراد وما باشر قط رئاسة الكهنوت وخاصة امور الشريعة لان مفهوم في الجبال ان المطارين هم الذين يشرعون للشعب فكان كثيرون من محبيه وغيرهم يقولون : مسكين عبدالله ظلموه. هذا رجل خائف الله نكن رعاية الانفس وخاصة في تلك البلاد تعسر عليهِ. وفي ذلك الحين كان زمان زيارة الرعية التي ارتسم عليها فاراد البطريرك ان يطلع معهُ الى قرية بسكنتا ليزور تلك الرعية بزعمه لكي يعلمه كيف السلوك. هذا الظاهر والباطن الله اخبر بهِ. فحين انوجدوا في بسكنتا مرض عبدالله واستدام مرضه انوف من اربعين يوماً طريح الفراش. وبعد ان تقوّى قليلاً نزل الى قرية عجلتون وبعد مدة قليلة ابتدأ بالوعظ على الشعب كالوف الرؤساء الحقيقيين وابتدأ يشرع كانهُ منذ صباه كان دارس الشريعة وحافظها غيباً. فعجبت الناس منهُ وظهرت لهُ سطوة على الجميع بهذا المقدار حتى حين كان يأمر امراً في الكنيسة او خارجاً عنها كانوا يظنون ان من خالفها خالف الله بالحقيقة. وظهر ما ذُكر للعالي والدون حتى الحكام والامراء. والمؤمنين والغير مؤمنين كانوا يتواردون اليهِ ليشرع بينهم والذي كان يحكمه جائز على الجميع وبالاكثر الغرباء. فانهم مراراً شتى كانوا يتركون قضاتهم ومشترعيهم ويأتون اليهِ وبعد الحكم عليهم يا للعجب من اناس غير مؤمنين لان الغالب والمغلوب كان يخرجون من امامه راضين لاعتقادهم فيهِ انهُ ما يمكن ان يشرع بخلاف الحق كما كان ذلك بالحقيقة. وبعض امرار حدث انهُ كان يحكم في بعض قضايا يقع فيها الغلط اما من

قبل الشهود او من قبل المدّعين لعدم معرفتهم النص فكان يرسل يطلب المحكوم عليهِ المغلوب ويعطيه ما رغمه بالشريعة من ماله وكان يشهر للعالي والدون: اني سهوت في هذا الحكم وانا ملزوم ذمةً في ان اعوض عليهِ الضرر الذي صار لهُ. فيا لهُ من تواضع عميق يعسر على كثيرين استعماله. كم وكم من المرات حين كانوا ياتون اليهِ من المدن اناس معتبرون من غير المسيحيين ومن الجبال ايضاً واذ كانوا يواجهونه كانوا ينطقون علانيةً ان هيبة الله على هذا الرجل. ومع هذا كله كنت تراه متواضعاً انيساً مؤانساً للمساكين والفقراء اكثر من السادات والرؤساء.

والبطريرك يعقوب وغيره من رؤساء الكهنة من كان يقدر يتجرأ ان يحرم احد المشايخ اذا زلّ زلّةً توجب ما ذُكر والحال ان عبدالله بعد ما ارتسم باربعة اشهر خبّروه ان احد المشايخ الخوازنة الذين في رعيته ارسل الى السحراء لكي يخبروه عن جملة دراهم كانت خفيت عنهُ. فحال ما تحقّق الخبر اشهر حرمه. وناهيك من كبار اهل الجبال في ضربةٍ ما حصلت لهم بعد وخاصةً خافوا لئلا يجري هذا الكاس على الكل. فصار اضطراب عظيم فيما بينهم وحين سمع البطريرك وباقي المطارين ما صار ظنوا ان عبدالله فيهِ طرف جنون. فراسله اكثر المشايخ بنوع تدليس وتهديد ليحلّ المحروم من غير ان يحضر ويقرّ باثمهِ. فكنت تنظر في عبدالله نوع غيرة على الحق بشجاعة هذا مقدارها فانا وغيري عاجز عن وصفها. وكان جوابه دائماً الى المراسيل التي كانت تأتي اليهِ من قبل المشايخ والى المشايخ: حاشا لي ان اكون في الحيوة واترك الغنم يفترسها الشيطان من بين يديَّ. ولئلا نطوّل الخطاب التزم الشخص المحروم يجيء الى دير لويزة حيث كان قاطن المطران عبدالله كي يرمي عليهِ سطوة من غير ما يخضع. فصار الامر بخلافه وهو هكذا لاني كنت حاضر انا وغيري من الرهبان. فحين وصل الشيخ المشار اليهِ اول كلامه لعبدالله كان هكذا: الذي مثلك ومثل غيرك يده تمتد ان تحرمنا نحن؟ وكلام مثل هذا يطول شرحه. فسكت عبدالله الى ان سكّن ذاك مصايحته وردَّ عليهِ هذا الجواب لا غير: انت يا فلان اشنيت وعيّرت طائفتك بالتزامك بالشياطين اعداء الله وانا ملزوم ذمةً في تخليصك فلا تلُم من يريد خير نفسك. فحالما لفظ هذه الالفاظ بكل ودّ وهدوّ وسلامة فحالاً رفع الشيخ عمامته عن راسه وسلاحه الذي اعتاد المشايخ ان يتقلوه وخرَّ ساجداً امام المطران الذي كان قاعداً وصرخ هكذا:

اخطيت في الارض والسماء وطالب الغفران من الله بواسطتـك وانت ابي من الان وصاعداً. حينئذٍ نهض عبدالله وعانقه وفي الحال طفرت الدموع من عينيه فتبعه التائب في البكاء. واغلب الحاضرين بكوا وللوقت ارسل منشور تعريف الى المشايخ بان فلان حضر الى عندنا واستغفر من الله على يدنا ونحن باركناه وارتفع عنـهُ كل حرم. ثم قال المطران عبدالله الى الشيخ المشار اليهِ (بعد ان فرض عليهِ كتانون قمحاً ودراهم للفقراء مبلغاً يحرز) : يا ايها الولد الحبيب الشياطين عاجزون على ان يجيئوا لك بدراهمك اما ان التجيت الى الله ما يفوتك برهة من الزمان حتى تعرف دراهمك اين هي. وهكذا صار لانهُ بعد مدَّة ليست مستطيلة حضر الى عنـد احد المشايخ الذي كانت الدراهم مخبأة عنده من ابي المرحوم وقال لهُ هكذا: دراهمك التي اودعها ابوك عندي تعال خذها. ولما رجع الشيخ المبارك من المطران الى عجلتون كان يمدح المطران ويحلف بصلاته فسألهُ باقي المشايخ : ماذا جرى لك كنت تذم فيهِ ونزلت الى عنـده وانت بغير نوايا فكيف انقلبت اليوم هذا الانقلاب. اجابهم : اسمعوا لما اخبركم . لما نزلت ووقفت امامه بدأت اتكلم بكلام كثير وهو ساكت بحال خشوعي الى ان فرغت انا من كلامي فاجابني هو بكلامه السابق بكل هدو ووداعة لي. ومع كلامه كنت احس في ذاتي ان شيئاً كان يرمي في قلبي الخوف والهيبة منهُ وهذه الهيبة والخوف جعلتني ان ارفع عمامتي من راسي واسجـد امامه طالباً الغفران. ولما حـسَّ بدموعه هاطلة على راسي تحرك قلبي وبدأتُ انا ايضاً ابكي. واقول لكم ان هذا الرجل ما احد يقوى عليهِ والكل يستهابونه لان هذا من عبيد الله

ولنرجع الى عبدالله فابتدأ المذكور بسياسة رعيته بنوع ما كان احد يظنه. اولاً بيَّن غيرته على خلاص انفسهم وثانياً غيرته على الحق ومن زود ثباته على الحق كثيرون كانوا يقولون: هذا عنيد ما يغير. ومع هذا كله تواضعه يفوق معرفة كثيرين من مؤانسته خاصةً للمساكين. واما ثباته وطول روحه حين يتشاجر الناس امامه في الشريعة شيء يعسر وصفه عليَّ. ومن حيث سيرته ونسكه وصلواته وقداساته ما غيَّر منها شيئاً عن ما كان في الديورة الَّا قضية واحدة انهُ في نومه بدلًا من ان ينام قاعداً بدأ يتكي راسه على المخـدة لابساً ثيابه بموجب القانون وما كان يقلع الَّا ما فوق الزنار

في بدء رياسته في الكهنوت استمر في اكل الصيام مثل الدير فحثه كثيرون على ان

ياكل اللحم لاجل عافيته ليقتات به لانهُ كان ضعيف الجسم. فما امكن. اخيرًا التزم ناس من رعيته ان يخبروا البطريرك وطلبوا منهُ ان يلزمه بذلك وهكذا صار لانهُ انوجد في جمعيَّة كان بها البطريرك والمطارين والزموه بان ياكل زفرًا معهم وبما انهُ كان غيورًا على الطاعة غيرة هذا مقدارها حتى اتصل بها ان الروساء العام الذين اقيموا بعده كانوا اذا امروه بشيء ليعمله بشرط انهُ لا يكون فيهِ شيء يثلم فكان يعملهُ بحسن قلب وبسرعة اعظم من سرعة المبتدئ في الرهبنة. فحين امره الروساء في اكل الزفر اطاعهم وبدأ ياكل قسرًا عنهُ ومع هذا كله جميع الذين رصدرا عليهِ في الزمان من رهبان وعوام حين اكله كانوا يرون منهُ قناعة بهذا المقدار حتى كأنهُ ما عمال ياكل شيئًا. فاستدام في لويزة نحو اربع سنوات ساكن في الدير لان الدير المذكور كان في رعيته والحال ان ما كان لهُ مقام معين وفي كل تلك المدَّة كان يعيش عيشة رهبانيَّة مثل ما كان وهو راهب

( تمت )

(حاشية الناسخ) هذا الجزء اتجد في مكتبة مار انطونيوس الموارنة في رومية وان اردت الباقي اسأل عنهُ في مكتبة لويزه والله اعلم

# ملحق

ومما وجدناهُ من آثار الرئيس توما البودي صاحب الترجمة السابقة رسالة بعث بها الى وزير ملك فرنسة لويس الخامس عشر يشكرهُ فيها عن صورة جلالتهِ كان ارسلها للرهبانية اللبنانية المارونية. وهذه الرسالة مصونة في باريس في سجلات الوزارة الخارجيَّة (١

## ايها السيد الكلي السمو والاحترام (٢

المعروض على الجناب السامي بعد الدعاء المفروض انهُ قد صار لي استعداد لاستكثار خيركم على الشرف الذي جنابكم السامي شرفتموني بارسال صورة من هو

(1) Archives du Ministère des Affaires étrangères à Paris. Série *Affaires religieuses et Missions du Levant*, *Carton* 4 ( 1727-1743 )

٢) نقلنا الرسالة بحروفها

اكبر ملوك النصارى لتوضع في احد ديورتنا لاجل ما تكون وثيقة الى رهبنتنا وايضاً شرف الى جميع طائفة الموارنة . فانا استصوبت اني اتشاور مع اربعة مدبرين وشيوخ الرهبنة واكبر مشايخ بلاد جبل لبنان فرأينا فرضاً واجباً علينا اننا نطلب ونترجّى من حضرة موسو يون (١ القنصل الفرنساوي بطرابلس سيريا الذي جنابكم السامي ارسلتم لهُ الصورة الجميلة والبهجة انهُ يريد يتفضل يشرفنا ويسلمنا الصورة بحضور المدبرين ورؤساء الديورة وشيوخ الرهبنة الذين كانوا مجموعين في ديرنا المسمى على اسم القديس لويز (٢ الذي الصورة مخصوص وضعها فيه وكل اكابر ومشايخ طائفة الموارنة حصلوا وانسروا من هذا الشرف باستعداد واستحضار كلي . موسو يون القنصل المكرم وافق مطلوب الجميع . فليكن محققاً عند جنابكم السامي بان ما كان يمكن يصير ازيد شرف من الذي صار حين قبول هـذه الصورة . وانا مقرّ ومعترف لجنابكم السامي ان الذي صار ما هو الّا لاجل الشرف الذي حصل ممّن هو اكبر ملوك النصارى وان هذا الضياء والابتهاج الذي ظهر في هذه البلاد فهو فعل يملو فأملأ كل القلوب فرحاً وابتهاجاً زائداً . وبما ان سيادتكم تواطيتم بالحنو والشفقة على رهبنتنا وعلى الغير بهبة هذا مقدارها التي هي علة هـذا الابتهاج والرضا الكلي فرجائي من سيادتكم ان تقبلوا مني المديح والشكران لفضلكم مني ومن رهبنتي مع طلب الاذن بذلك باتهجم على جنابكم الكلي سموه . وبمثله اشكر فضلكم عن لسان اكابر ومشايخ طائفة الموارنة مع الشعب الغفير الذي كان حاضراً لاستقبال هذه الصورة الآتيين من اقطار الجبال اللبنانية وهذا صار شهادة لتنازل سيادتكم بالشرف الذي شرفتموني ولرهبنتي ايضاً وذلك ليطبع في قلوب الجميع الى جيل وجيل ليستقيموا بحفظ الوداد بالارث من ابايهم وليدوموا بالحظوة بنظر وحماية الملك المسيحي المنصور

ولكي لا يُنسى هذا الشرف انا متهجم على شرفكم السامي ان تحلموا عليّ وعلى رهبنتي ان نكون تحت حماية الملك المسيحي السعيد في هذه النواحي كما هي الرهبنات الغربية التي لها الشرف الحاصلة فيه اعني حماية الملك . كذلك اتهجم بالتوسل الى

١) Yon جُعل قنصلاً في طرابلس بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٧٣٦ خلفاً لمسيو دي بلّيس (dn Bellis) (نقلًا عن سجلات الوزارة البحرية في باريس ٤٤١ .B7, n°)

٢) يريد دير لويزه . والمقابلة بين لويزة ولويس من التراية بمكان

همتكم العالية ان من الان والمزمع ان تشرفوا هذه الرهبنة الداعيـة لجنابكم بنظر خصوصي ان تامروا الاساكل بان رهباننا المتوجهين كل وقت الى ديرنا في مدينـة رومية لينالوا العلوم ان يتجملوا باعتبار على الاوقاف الفرنساوية مثـل بقية رهبنات الغربيين من غير مانع ٠ ومن الان مع انتظارنا لاوامركم الشريفة مستعدين ان ننشي في كل ديورتنا الدعاء المعتاد لحضرة الملك مع العيلة الملوكية التي هي فخر الملة المسيحية والدائمة النصر الغير منتصر عليهـا وايضاً ما يمكن ان تفعل الرهبنة بالدعاء والصلاة لاجل رفع شانكم ودوام العز لسيادتكم مع القداسات المختصة لجنابكم المدومة. وكذلك انا وجميع رهبنتي والمزمعين ياتوا بعدنا لم يمكن ان ينسوا فضلكم واحسانكم مع الدعاء المستقيم ابداً كما ذكر وانا مستعد بخدمـة سيادتكم وتحت اوامركم على الدوام ايهـا الشريف الحسب والسمو

حرر بدير لويز في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني سنة الف وسبعماية وثماني وثلاثين مسيحية

مكان الختم الحقير في الكهنة توما اللبودي

مع هذه الاية : اب عام رهبان مار انطونيوس اللبنانيين

من كان فيكم كبيراً فليكن لكم خادماً

# الآداب العربيَّة في القرن التاسع عشر

بحث تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

وقبل ان نختم تاريخ هذا الطور الاوَّل من الآداب العربيَّة في القرن المنصرم يجمل بنا ان نذكر المستشرقين الاوربيين الذين استحقُّوا ثناء الادباء بما نشروهُ من المصنَّفات العربيَّة

وممَّا يقال بالاجمال انَّ هذه ثلاثة اعشار القرن لم يبلغ احد فيهـا بين الاجانب مبلغ العلّامة سلوستر دي ساسي لكنَّنا نؤجّل الكلام فيـهِ الى الطور التالي لأنَّهُ فيهِ مات ٠ وكان دي ساسي كنقطة المركز لدائرة زمانهِ يشيرون اليهِ بالبنان لتفنُّن معارفهِ

بل كان منارًا يستضيء بنوره كلّ من اراد العلوم الشرقيَّة في فرنسة وغيرها فيقدمون باريس ليحضروا دروسهُ ويدورون في فلكهِ كالاقمار المستنيرة به

وقد جاراهُ في علومهِ ولم يبلغوا شأوهُ بعض اهل وطنهِ الذين قدَّمنا ذكرهم (ص ٣٧٩) كالعلّامة دي غيني ولنغلاي ودوپرون وهربان ولكأهم الآثار الناطقة بعلوّ هممهم وسعة معارفهم. وممَّن تتلمذوا لهُ وفازوا بالشهرة في آداب العرب المسيو امابل جوردان ( A. L. Jourdain ) (١٧٨٨–١٨١٨) كتب تاريخًا للعجم وانتقد تأليف مرخند وصنَّف كتابًا في البرامكة ونقل الى الفرنسويَّة نُبذًا من تاريخ العرب عن حروب الفرنج في بلاد الشام. لكنَّ هـذا المستشرق مات في مُقتبل العمر. ومن تلامذة دي ساسي ايضًا في هذا الطور انطون ليونارد دي شازي ( Chézy ) نبغ في اللغات الشرقيَّة وكتب عدَّة مقالات في آثار العرب والعجم وغيرهم في مجلة العلماء ولهُ تاريخ العجم ومجانٍ ادبيَّة فارسيَّة ومنتخبات من كتاب عجائب المخلوقات للقزويني. توفي سنة ١٨٣١ وكان مولدهُ سنة ١٧٧٣

وممَّا يُذكر من حسن مساعي الفرنسويين في خدمة الآداب الشرقيَّة في ذلك العهد نشأة الجمعيَّة الاسيويَّة الباريسيَّة انشأها دي ساسي ورصفاؤهُ وتلامذته سنة ١٨٢١ ثمَّ باشروا بنشر الآثار القديمة والمقالات المستحسنة في كل فنون الشرق وآدابهِ ولغاتهِ لاسيما اللغات الساميَّة منذ السنة ١٨٢٢ ومجلَّتهم تبرز كل سنة في مجلَّدين فيكون مجموع ما ظهر الى يومنا منها بالغًا ١٧٠ مجلَّدًا تحتوي كنوزًا ثمينة في كل آداب الشرق

وحذا الانكليز حذو الفرنسويين في العام التالي سنة ١٨٢٣ فشكَّلوا ايضًا جمعيَّة دعوها باسم جمعيَّة بريطانية العظمى وايرلندة الاسيويَّة الملكيَّة. وكان الساعي في هـذا المشروع بعض كبار الاثريين مثل كولنبروك ( Colenbrook ) وجُنستون (Johnston) وستونتن ( Staunton ) وڤين ( Wynn ) وهوغتون ( Haughton ) فنشروا ايضًا نشرة علميَّة ( Transactions ) سنة ١٨٢٤ ثم وسَّعوها سنة ١٨٣٦ ودعوها مجلة لندن الاسيويَّة الملكيَّة لكنَّ العلماء الانكليز كانوا يوجّهون اهتمامهم الى الهند خصوصًا والى لغات الهنود وآدابهم. وكذلك نشر الالمان مجموعات شرقيَّة منها «معادن الشرق» للعلّامة هامر ( Hammer ) و«جريدة المعارف الشرقيَّة» التي طُبعت في بونة من اعمال المانية امَّا الجمعيَّة الاسويَّة الالمانيَّة فلم تنشأ الَّا بعد ردهة من الدهر

ومن مشاهير المستشرقين في تلك الأيام غير الفرنسويين رازموسن (Rasmussen) الدنيمركيّ (١٧٨٥—١٨٢٦) درس العلوم الشرقيَّة في باريس ثم عاد الى وطنهِ فتولّى تدريس لغات الشرق في حاضرة بلادهِ كوبنهاغن لهُ عدَّة تآليف في تواريخ العرب في الجاهليَّة نقلًا عن ابن قتيبة وابن نباتة والنويريّ مع جدول لتوفيق التاريخ الهجري والتاريخ المسيحيّ. ونقل قسماً من كتاب الف ليلة وليلة. ومن مصنَّفاتهِ كتاب لهُ في المعاملات التي دارت بين العرب والصقالبة في القرون الوسطى

واشتهر بين الالمان ڤلمت (J. Wilmet) الذي نشر معجماً عربيًّا لاتينيًّا ونقل معلَّقتي لبيد (سنة ١٨١٤) وعنترة (سنة ١٨١٦) وعلَّق عليهما الحواشي الواسعة والتذييلات المهمَّة. ومنهم ايضاً كرل رودلف پيپر (C. R. S. Peiper) نقل قسماً كبيرًا من مقامات الحريري الى اللاتينيَّة وحشَّى معلَّقة لبيد. وكذلك عُرف بينهم كرل تيودور جوهنسن (C. T. Johannsen) الذي ترجم تاريخاً لمدينة زبيد عنوانهُ « بغية المستفيد في اخبار زبيد » ونشرهُ في بونة سنة ١٨٢٨. وهو تاريخ حسن ألَّفهُ في غرة القرن العاشر للهجرة الامام سيف الاسلام ابن ذي يزن الفقيه عبد الرحمان الربيع

وكانت الدروس العربيَّة قد ضعفت قليلًا في ايطالية فانهضها احد فضلاء الأُسرة السمعانيَّة نريد شمعون السمعاني الذي ولد في طرابلس ودرس في مدرسة الموارنة في رومية العظمى ثم تجوَّل مدَّة في مصر والشام لجمع المخطوطات الشرقيَّة. ولمَّا كانت السنة ١٧٨٥ عهدت اليهِ كليَّة پادوا تدريس اللغات الشرقيَّة فعلَّمها الى سنة وفاتهِ في ٧ نيسان ١٨٢١. لهُ تأليف في عرب الجاهليَّة واصلهم وتاريخهم واحوالهم في مجلَّدين. ووصف الآثار الكوفيَّة في المتحف النانياني والمتحف البرجياني ومتحف السيد مينوني

وفي الوقت عينهِ اكتسب احد كهنة ايطالية المسمَّى جان برنرد دي روسي (١٧٤٢—١٨٣١) شهرة واسعة في المعارف الشرقية. فانهُ كان اولًا ناظرًا على متحف مدينة تورينو ثم تولَّى تدريس اللغات الشرقيَّة في كليَّة پارما نحو خمسين سنة. ومن مشروعاتهِ الطيبة انشاؤهُ في پارما مطبعة شرقيَّة متقنة الادوات جميلة الحروف اصدرت عدَّة مطبوعات بديعة الطبع. وكان دي روسي حاذقاً في اللغة العبرانيَّة لهُ فيها عدَّة مصنَّفات. منها وصف مكتبة واسعة كان جهَّزها بالتآليف النادرة والمخطوطات الجليلة

ومنها تآليف في الشعر العبرانيّ وكان يحسن العلوم العربيّة كما يدلُّ عليهِ كتابهُ «معجم اشهر ادباء وكتبة العرب» الذي طبعهُ سنة ١٨٠٧

الفصل الرابع في الآداب العربية من السنة ١٨٣٠ الى ١٨٥٠

هو الطور الثاني من القرن التاسع عشر وهو يشمل عشرين سنة اصابت في مطاويها الآداب العربيَّة ترقيًا مذكورًا

ومَّا امتاز بهِ هذا الطور الثاني انتشار المطابع العربيَّة في الشرق . نعم انَّ الطباعة كانت سبقت هذا العهد كما بيَّنَّا الامر في المقالات المتعدّدة التي خصصناها بهذا الفنّ في اعداد المشرق من السنين الثلاث ١٩٠٠ و١٩٠١ و١٩٠٢. لكنَّ المطبوعات العربيَّة في الشرق كانت قليلةً لا تتجاوز بعض العشرات واكثرها دينيَّة كما في مطابع حلب وبيروت والشوير. فلمَّا كان القرن التاسع عشر توفَّرت الادوات الطبعيَّة في الشرق وقد مرَّ لنا ذكر مطبعة الاستانة العليَّة ومطبعة بولاق (٣: ١٧٤) وكلتاهما وسَّعت دائرة اشغالها في هذا الطور الثاني لاسيما مطبعة بولاق التي ابرزت نحو ثلاثمائة كتاب في فنون شتى بالعربيَّة والتركيَّة والفارسيَّة (Journ. As., 1843², 24-61) وكان اكثرها منقولًا عن الفرنسويَّة في العلوم المستحدثة كالرياضيَّات والطبّ والجراحة وجرّ الاثقال والفنون العسكريَّة امَّا الكتب الادبيَّة فكانت يسيرةً

ومن المطابع التي جدَّدت حركتها في هذه المدَّة مطبعة القديس جاورجيوس في بيروت (المشرق ٣: ٥٠١) فانَّها بعد خمودها نحو مئة سنة عادت الى اشغالها بسعي مطران الروم الارثدكس بنيامين سنة ١٨٤٨. وفي السنة التالية انشأ في القدس بطريرك الروم كيرلُّس الثاني مطبعةً عُرفت بمطبعة القبر المقدَّس اليونانيَّة (المشرق ٥: ٧٤). ومعظم مطبوعات هاتين المطبعتين في السنين الاولى لانشائهما لم تتجاوز الموادَّ الدينيَّة

وفي اثناء هذا الطور اعني من السنة ١٨٣٠ الى ١٨٥٠ استُحدثت ثلاث مطابع كبيرة اعانت على نشر آداب اللغة العربيَّة في جهات الشام: الاولى منها مطبعة الامركان التي نُقلت سنة ١٨٣٤ من مالطة الى بيروت واستحضرت ادوات جديدة وحروفًا مشرقة فاشتغلت منذ ذاك الوقت بطبع مؤلَّفات جمَّة عددنا قسمًا منها في المشرق (٣: ٥٠٤). والثانية مطبعة الآباء الفرنسكان في القدس الشريف باشرت اعمالها سنة ١٨٤٦ والثالثة

مطبعتنا الكاثوليكيَّة كان ظهورها سنة ١٨٤٨ فطبعت اولاً كتباً شتى على الحجر ثم طبعت على الحروف سنة ١٨٥٤ ( المشرق ٣: ٧٠٦ ) فهذه المطابع لم تزل منذ نيف ونصف قرن تجاري بعضها بعضاً في ميدان الآداب كخيل السباق ولا غرو فان بواسطتها تعدَّدت المنشورات وقرب جناها على ايدي الاحداث واقبل على مطالعتها القوم

ومن الاسباب التي ساعدت ايضاً في تلك المدَّة على اتساع المعارف الادبيَّة وارتقاء اللغة العربيَّة ما أُنشئ في الشرق من المدارس بهمَّة اصحاب الخير. فما عدا المعاهد التي سبق لنا ذكرها (ص ٢٤٥) كعين ورقة وعين تراز والشرفة ظهرت مدارس جديدة غايتها ترقية العلوم كان الفضل في انشائها الى المرسلين اللاتينيين. واوَّل هذه المدارس التي فتحت لتثقيف الوطنيين بالآداب العصريَّة مدرسة عين طورا باشرت بالتعليم سنة ١٨٣٤ وقد سبق المشرق (٣: ٥٤٨ الخ) فاتسع في تاريخ هذه المدرسة الشهيرة ومن تخرَّج فيها من الادباء فلا حاجة الى التكرار

ثم أُنشئت بعد تسع سنوات (١٨٤٣) مدرسة للآباء اليسوعيين في كسروان انشأها الاب مبارك بلانشه في غزير في الدار التي كان شيَّدها الامير حسن يوسف شهاب لسكناه. وهذه المدرسة بقيت عامرةً الى سنة ١٨٧٤ حيث نقلت الى بيروت فقامت عوضاً عنها مدرسة القديس يوسف الكليَّة. ومن مدرسة غزير خرج رجال افاضل لا يُحصى عددهم منهم بطاركة اجلاء واساقفة مبجَّلون وكهنة غيورون ووجوه وأُدباء وكتبة كانوا كلهم ولا يزال كثيرون منهم الى يومنا سنداً لكل مشروع خيري ولكل مسعىً صالح

وكما اهتمَّ المرسلون بفتح المدارس للذكور لم يسهوا عن تربية الاناث فبمساعيهم قدمت راهبات مار يوسف سنة ١٨٤٥ ثم راهبات المحبَّة سنة ١٨٤٧ واخذت يتفانين في تهذيب الفتيات في الشام وفلسطين. وبعد سنين قليلة انشأ الآباء اليسوعيون سنة ١٨٥٣ جمعيَّة الراهبات المريمات ثم جمعيَّة قلب يسوع والفتاتان حازتا رضى الاساقفة والاهلين وخدمتا الوطن احسن خدمة بتهذيب البنات ثم اجتمعتا باخوية واحدة عُرفت باسم راهبات قلبي يسوع ومريم يشهد لهنَّ الجميع في يومنا بالغيرة والصلاح وحسن التربية للشبيبة وخصوصاً في القرى المهملة. وكذلك انتشرت راهبات الناصرة في هذه

البلاد وتولّين ادارة مدارس الاناث من كلّ طبقات الاهلين في بيروت وعكّا وحيفا والناصرة وشفا عمرو فاحرزنَ لهنَّ ثقة الجمهور بفضلهنَّ

امّا المدارس الوطنيّة فانّها تعزّزت ايضاً في هذا الطور وزادت نموًّا لاسيما مدرسة عين ورقة التي اكسبها رئيساها الاوّلان المطران خير الله اسطفان والمطران يوسف رزق الجزيني رونقاً عظيماً ماديًّا وادبيًّا . ومن آثار هذه المدرسة حينئذٍ انشاء جمعيّة مرسلين انجيليين انتسبوا الى مار يوحنّا الانجيليّ وخدموا النفوس باعمال الرسالة نحو عشرين سنة ثم خلفتهم جمعيّة مرسلي الكريم التي لا تزال حتى يومنا تفلح كرم الرب بنشاط وغيرة

وكذلك تقدّمت مدرستان اخريان للطائفة المارونيّة كان سبق تأسيسهما في ايّام السيّد البطريرك يوحنّا الحلو نريد مدرسة مار يوحنّا مارون كفرحي ومدرسة مار مارون الروميّة . فكان الساعي بانشاء الأولى المطران جرمانوس ثابت في السنة ١٨١١ خصّها بتهذيب بعض احداث بلاد جبيل والبترون وجبّة بشراي ثم اتّسعت بعد ذلك في ايّام الطيّب الذكر المطران يوسف فريفر الذي صرف المجهود في تحسينها وقد حذا حذوهُ رئيسها الحالي المنسنيور بطرس ارسانيوس الذي لا يزال مهتمًّا بشؤونها ونجاحها

امّا المدرسة الروميّة فكان انشاؤها بعد ذلك سنة ١٨١٧ وكانت هذه المدرسة ديرًا فامر البطريرك يوحنّا الحلو بتحويلها الى مدرسة وصادق على امره آباء مجمع اللويزة في السنة التالية . ولعائلة بيت الصفير اوقاف وحقوق على مدرسة الروميّة التي اخرجت عددًا وافرًا من افاضل الشبّان المرشّحين للكهنوت

ولمّا قام السيد يوسف حبيش بطريركا على الطائفة المارونيّة وجّه عنايته الى فتح المدارس لابناء رعاياهُ فتُحت اولًا مدرسة مار يوحنا مارون في صربا ١٨٢٧ وكان الساعي بذلك المطران يوحنا العضم . ثم فُتحت مدرسة أُخرى في عرمون وكان هناك لبيت آصاف دير للراهبات فحوّلوهُ بعد امر السيد البطريرك الى مدرسة عموميّة لتعليم شبّان الطائفة المارونية العلوم الاكليريكيّة وصار لهذه المدرسة نجاحٌ عظيم خرج منها اولو فضل ممّن تفتخر بهم ملّتهم حتى اليوم كالسادة الاجلاء المطران يوسف النجم والمطران اسطفان عوّاد والمطران بولس عوّاد والمطران يوسف مسعد وكالخوارنة العالمين العاملين يوسف العلم وكيل سيادة مطران بيروت حالًا ويوحنا رعد الغزيري الشاعر والخوري عبد الله العقيقي وغيرهم

وبعد ذلك بسنتين (١٨٣٢) سعى البطريرك الموما اليهِ بتحويل دير مار سركيس وباخوس في ريفون الى مدرسة لابناء الطائفة كمدرسة مار عبدا فلبّى دعوته ولاة الدير من بيت مبارك بكل طيب قلب وافرغ رئيس الدير القس فرنسيس مبارك كنانة الجهد في تحقيق تلك الاماني فلم تذهب مساعيهِ ادراج الرياح كما ترى في تاريخ هذا الدير الذي سبق بتسطير اخباره حضرة الاب الابراهيم حرفوش في المشرق (٨: ٦٧ و٣٤٧ و٧٥٣)

وفي هذا الوقت ايضاً كان المرسلون الاميركان لا يألون جهدًا في فتح المدارس اخصّها في بيروت واعبَيه فنجحوا فيها بعض النجاح لولا انَّهم ناقضوا فيها تعاليم الدين الكاثوليكي ليبثُّوا في قلوب الاحداث زوان التساهل الديني

وكانت الدروس العربية في كل هذه المدارس راقية فانَّ منها خرج معظم الذين اشتهروا بالكتابة في القرن المنصرم وخصوصاً بين النصارى كما نبيّن ذلك

أمّا المدارس خارجاً عن الشام فكانت في الغالب مقصورة على مبادئ القراءة والكتابة واصول الحساب واللغة (لهُ بقيَّة)

---

# مطبوعات شرقية جديدة

I Ludwig von Sybel. CHRISTLICHE ANTIKE. EINFUEHRUNG IN DIE ALTCHRISTLICHE KUNST. I. Einleitendes. Katakomben, mit 4 Farbtaf. u. 55 Textbild., VII - 308 pp., gr. 8°. 1906 *Marburg, Elwert.*

II. — Id —. DIE KLASSISCHE ARCHAEOLOGIE U. DIE ALTCHRISTLICHE KUNST. Rektoratsrede, 18 pp., 8°, 1906. Ibid.

العاديَّات النصرانيَّة — خطبة في الآثار النصرانية

أهدانا هذين الكتابين الطباع إلڤرت بوصاة المؤلف الدكتور سيبل رئيس كليَّة مربورغ وغاية كاتبهما ان يرشد محبّي الفنون الجميلة الى معرفة خواصّ العاديَّات النصرانيَّة القديمة كعاديَّات دياميس رومية وغيرها من الآثار المجهولة. وقد صدَّر المؤلف كتابهُ بمقدَّمة واسعة بحث فيها بحثاً مدقَّقاً عن اصول تلك العاديَّات وخواصّها وما من

العلاقة بينها وبين الآثار المدنية. والحق يقال ان الدكتور سيبل اثري مضطلع بكل فنون العاديات من هندسة وبناء وتصوير ونقوش لا يشطّ في كلامهِ حيثما يبقى في حيّز وصف العاديات فانهُ مجال يُحسن الجري فيهِ ومن ثم نسلّم لهُ بقولهِ انّ النصارى الاوّلين جاروا في آثارهم اهل عصرهم من يونان ورومان فتقلّدوا اعمالهم وخصّصوها بالدين المسيحي. وكذلك لا نؤاخذهُ في قولهِ بانّ النصرانية مع كونها من اصل ساميّ برزت للعالم في مظهر يونانيّ من حيث فنونها ولكننا نردّ قولهُ وننبذهُ نبذ النواة اذ يتجاوز طور الاثريين ويخوض عباب الفلسفة وهو لم يُتقن اصولها. فلو كان درس من الفلسفة مبادئها لما امكنهُ ان يقول انّ الدين النصرانيّ استعار تعاليم اليونان والرومان في امور الدين. فيا ليت شعري اين خرافات اليونان من تعاليم السيّد المسيح واين اختراعات البشر من الوحي الالهيّ الصادق بل اين الظلمة من النور. وخلاصة القول انّنا نثني على هذا الكتاب من حيث اوصافهِ الوضعيَّة وحسن طبعهِ واتقان صورهِ البديعة وكثرة موادهِ الّا انّنا ننبه القرّاء على مطالعتهِ بتحذّر واحتراس لئلّا يزلّوا بزلّتهِ. وممّا يستحقّ الثناء انّ المؤلف قدّر اعمال الكاثوليك قدرهم فاستشهد بهم مرارًا عديدة مصادقًا على اقوالهم وبالخصوص العلامة دي روسي والاب غاروتشي اليسوعيّ والعلامة كروس وماروتشي وڤلپرت. ورجاؤنا ان يتحفنا الكاتب قريبًا بالجزء الثاني من كتابهِ مع تجريدهِ من كل ما يجرح احساسات الكاثوليك الدينيَّة س. ر

KARTE DER MATERIALIEN ZUR TOPOGRAPHIE DES ALTEN JERUSALEM 1 : 2500. $1^{m} \times 0{,}70$, und MATERIALIEN z. Top . . . Begleittext, XV - 198 pp. 8°, von **A. Kuemmel**, Deutsch. Ver. z. Erforsch. Palaest. in Komm. bei *R. Haupt, Leipzig*. 1906.

خارطة لتعريف آثار اورشليم وابنيتها القديمة مع شرحها

لقد توفَّرت التآليف العلمية المنوطة باورشليم وابنيتها القديمة ولا تزال الاكتشافات الجديدة تزيدنا علمًا بمواقع معاهدها وآثارها. فكان العلماء في حاجة الى نظر عام يشمل تلك الاكتشافات ويبيّن ما يوجد بينها من النسبة والعلاقات. فلسدّ هذه الثلمة كان احد السويسريين المدعو تسترمان وضع سنة ١٨٧٦ كتابًا مفيدًا يرجع اليهِ ارباب الدرس لمعرفة احوال القدس الشريف لكنّ الحفريات التي صارت مذ ذاك

العهد اقتضت تأليفاً جديدًا تولّى صنعهُ العلامة الالماني كومل · ولزيادة عمله فائدة اخذ الخارطة التي رسمها لاورشليم الضابط الانكليزي ولسون (Wilson : *Ordnance-Survey of Jerusalem*) فاعاد فيها النظر مدقّقًا في مضامينها ومصلحًا لاغلاطهـا ومضيفًا اليها الاعلام الجديدة التي وقف الاثريون على موقعها منذ عهد تلك الخارطة في سنة ١٨٦٥ · وقد احسن بجعله مقياس هذه الخارطة كمقياس خارطـة ولسون في كبرها تمتدُّ شمالًا الى ١٣٥ مترًا من المدفن المدعوّ زورًا بقبر الملوك وتبلغ جنوبًا الى محطّة السكة الحديديّة وشرقًا الى جبـل الزيتون وغربًا الى مأوى المسكوب الكبير · وقد جعل لهذه الخارطة مشبّكًا مع ارقام غليظة تسهّل التفتيش في كتاب الشرح · وهذا التأليف غاية في النظام والترتيب ضمّنهُ صاحبهُ كلّ مقامات اورشليم وابنيتها وشوارعها الحالية · يليها فصل في المدينة القديمة وموقع ابنيتها وفي اثره فصل آخر في اودية اورشليم في خارج المدينة وداخلها مع بيان مشارفها وقُللها · ثم اسوارها القديمة وحصونها · ثم حرم الهيكل وابنيتهُ والابواب التي كانت تفضي اليـهِ · ثم الاحواض والبرك والقني التي كانت في المدينة · ثم آخرًا المغاور والمدافن مع القصور والبيوت على قدر الامكان · ولكل هذه الفصول مقدّمات تعرّف تاريخ الابنية الموصوفة مع مواقعهـا مستندًا في ذلك الى اصدق الاسانيد والى تآليف مشاهير العلماء التي يورد اسماءهـا في لحف الكتاب لا ينتحها الّا زياد معرفة بعض التآليف الفرنسويّة كخارطة الاب اوكلار (Aucler) اليسوعي لابنية اورشليم ومقالات العلامة الصعودي الاب جرمر دوران (Germer-Durand) · وممّا احسن فيهِ المؤلف انهُ ضرب صفحًا عن المباحث التي لم يقرّ فيها رأي العلماء فتشعّبت فيها المذاهب · ومجمل القول ان هذا التأليف وافٍ بالمرام لا غنىً عنهُ لكل من يبحث عن اورشليم وآثارها س · ر

Karl Mayreder: EIN BESUCH IN KLEINASIEN Wien, *Lehmann u. Wentzel*. 1907, gr. 8°, 50 p. et 39 illustr.

سياحة حديثة في الاناضول

قد رخّصت الدولة العليّة لبعثة نمساويّة ان تجري في الاناضول حفريّات للتفتيش على الآثار القديمة فانتهز احد علماء ڤينة الاستاذ كرل ميّرادر هذه الفرصة ليزور تلك

الانحاء في صحبة رئيس هذه البعثة المسيو هيبردي (Heberdey) ويدرس آثارها فتجوَّلا في تلك الجهات ودرسا آثارها درساً مدقِّقاً. فلمَّا عاد الاستاذ المومأ اليه الى عاصمة النمسا اسرع الى تسطير رحلته وعرض ما عاينهُ على تآليف القدماء من اليونان والرومان فاحيا ذكر تلك المدن الدارسة واثبت ما يُستدل بهِ من اطلالها على احوالها السابقة ورونقها فجاءت سياحتهُ مع قصرها بمثابة كتاب واسع حافل بالموادّ والمعلومات. وقد تتبَّع تلك المدن واحدة بعد اخرى ورسم خوارطها ودوَّن مآثرها. فيدخل معهُ القارئ مثلاً الى افسس فيرى هيكل ارتميس الشهير الذي ورد ذكرهُ في اعمال الرسل ويعاين موقع مكتبتها القديمة المكتشفة آخراً. او يتجوَّل في مليطة ويُسرّ بمنظر ملعبها الشهير ومعبد ابولون الذي كان يحجُّ اليهِ اليونان من اقاصي بلادهم. فكل هذه الاوصاف تروّح الالباب وتسرُّ القلوب وتطبع في الاذهان اخبار تلك الامم المتمدّنة ل.ج

# شَذَرَات

﴿ تجارة الهند الانكليزيَّة ﴾ بلغت تجارة الهند في السنة الماضية من غرَّة نيسان ١٩٠٦ الى غاية آذار ١٩٠٧ مبلغاً لم يُعهد لهُ مثيل قبلاً. فكان مجموع محصَّل تلك التجارة لا يقلّ عن ٢٢٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه اعني ٥,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات وهو مبلغ يفوق كلَّ المقادير السابقة. وكان معظم هذه المبالغ مصروفاً في تجارة المنسوجات والقطنيَّات ما يزيد ثمنهُ على ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ جنيه. وكذلك السكَّر من الواردات الواسعة تجارتها فقد بيع من السكر في العام المنصرم بما يساوي ٦,٢٢٣,٠٠٠ جنيه. وعلى خلاف ذلك قد كسدت قليلاً سوق بعض الحبوب وخصوصاً القمح والأرز

﴿ آثار روديسية وعادياتها ﴾ كانت روديسية مجهولةً من العالم المتمدّن قبل خمسين سنة واليوم قد اضحت بهمَّة مكتشفها سيسيل رودس ونشاط الانكليز الذين قلبوها وجهاً لبطن بلاداً عامرة يستثمرها اصحابها فيغتنون بثروتها العجيبة. امَّا العلماء فوقفوا هناك على آثار قديمة كقصور وبروج مخروطة واسطوانات وبنايات شتى تدلُّ على انَّ تلك البلاد كانت قبل الوف من السنين حافلةً بالسكان يتولَّاها قوم ذوو معارف

وتمدّن كانوا يحسنون الفنون ويمدّنون معادن الذهب التي في تلك الجهات ويصوغون المصوغات الجميلة . وما هو اجدر بالاعتبار انّ البنايات العريقة في القدم احكم صنعاً وادقّ عملاً من البنايات التي شُيّدت بعدها بمئتين من السنين وكفى بذلك دليلاً على بطلان مزاعم القائلين انّ البشر في الطور الاوّل كانوا همجاً يعيشون متوحشين في البراري والقفار ثمّ تمدنوا بكرور الدهور. وكان العرب في القرون المتوسطة يعرفون بلاد الزمبيز وروودسية ويتاجرون مع اهاليها . ومما وُجد من آثارهم قطع خزفيّة وزجاج وجدت في جوار مدينة زمبابوة عليها كتابات ونقوش عربيّة من القرن الثالث عشر

﴿ تجارة يافا ﴾ قد بلغت تجارة يافا في العام المنصرم مبلغاً لم تعهدهُ قبلاً فان مجموع الواردات والصادرات في السنة ١٩٠٦ لم يقلّ عن ٢٩,٠٠٠,٠٠٠ فرنك والزيادة على العام السابق ٨,٢٥٠,٠٠٠ ف وان اضفتَ الى ذلك تجارة غزّة كان مجمل مبالغ اتجارها ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ ف . وقد زاد مع حركة التجارة عدد السكّان والاشغال فانّ عدد اهل القدس يربي اليوم على ٧٠,٠٠٠ نفس . وبلغ اهل يافا ٤٥,٠٠٠ منهم ١٠,٠٠٠ يهوديّ يرتزقون بالزراعة والتجارة . واهل غزّة عددهم ٤٠,٠٠٠ نفس . امّا ركّاب السكة الحديديّة من يافا الى القدس فتجاوزوا ١٠٠,٠٠٠ وكان موزون البضائع فيها ٣٤,٠٠٠ طنّ . ومما زاد عليه الاقبال في فلسطين المنسوجات القطنيّة التي تأتي من ايطالية والمانية وكذلك البترول والخشب والقرميد والسكّر . وقد ساوت الواردات من فرنسة الى يافا ١,٠٥٠,٠٠٠ ف . والصادرات من يافا الى فرنسة نحو المليون وكان عدد السفن الفرنسويّة الراسية في مينا يافا ٩٠ نقلت اليها ١٨٢,٦٠٠ طنّ من السلع . ومن صادرات يافا ليمونها الشهير ارسلت منهُ الى ليفربول وحدها ٥٠٠,٠٠٠ صندوق

﴿ المذنّب الجديد ﴾ زارنا نجمٌ مذنّب منذ ثلاثة اسابيع لم يسبق مرورهُ على كرتنا . واوّل من رصدهُ الاميركيّ دانيال فعُرف باسمهِ ( Daniel d ) . وهذا النجم ذو رأس ساطع النور وذنبهُ يمتدّ ويتّسع على هيئة جميلة وموقعهُ في السماء الجهة الشرقية ليس بعيدًا عن كوكب الصبح وهو من حجم الكواكب ذات الكبر الرابع او الثالث يُرى بالعين المجرَّدة ساعةً قبل طلوع الشمس

# اسئلة واجوبة

س سأل احد الادباء من غلبون من ابتدأ بلبس السواد اشارة الى الحداد ولماذا ومتى ؟

## لبس السواد في الحداد

ج الحداد على الموتى عريق في طبيعة الانسان لكنّ العادات في مظاهره قد اختلفت اختلافاً عظيماً على اختلاف الامكنة والازمنة والاشخاص كما يلوح من تواريخ الشعوب . فالعبرانيون كانوا يمزقون ثيابهم في الحداد ويذرُّون الرماد على رؤوسهم وكان غيرهم يخدّشون وجوههم او يجرّحون اجسامهم الى غير ذلك من العادات التي يرويها التاريخ . وكذلك الثياب الملوّنة تختلف في الحداد فانّ الصينيين يعتبرون الابيض كشارة الحداد واليابانيون الازرق امَّا اليونان فانَّهم اتّخذوا اللون الاسود لانهُ لون قاتم مظلم وهو انسب للدلالة على الحزن ومنهم عمّ استعمال السواد في اوربَّة وغيرها

س وسأل الخواجا الياس فارس من البلدة ما هي اللغة التي تكلّم بها السيد المسيح ؟

## لغة السيد المسيح

ج تكلّم السيد المسيح باللغة التي كانت دارجةً في فلسطين بين اليهود . واليهود تكلّموا بالعبرانيَّة الى جلاء بابل ففي جلاء بابل اختلطوا بالكلدان ففسدت لغتهم لطول مدَّة سكناهم بينهم ولتقارب اللغتين . فلمَّا عادوا الى مواطنهم غلبت الكلدانية على لغتهم الدارجة . وفي هذه اللغة كُتبت اسفار الكتاب المقدَّس المؤلفة بعد جلاء بابل او في وقته كنبوءة دانيال وسفر طوبيا ويهوديت وما يدعوهُ اليهود بالترجومات اي تفاسير الكتاب المقدَّس . وهي هي اللغة التي كانت شائعة في ايَّام السيد المسيح فنطق بها كما يظهر من الفاظٍ كثيرة اوردها الانجيليُّون بلفظها فصوَّروها بالحرف اليوناني كقول الرب في مرقس (٥ : ٤١) Ταλιθὰ κοῦμι ( يا صبية قومي ) وكقولهِ عزَّ وجلَّ على الصليب Ἠλὶ Ἠλὶ λαμὰ σαβαχθανί ( الهي الهي لماذا تركتني ) وغير ذلك ممَّا تجدهُ في اسفار العهد الجديد . وهذه اللغة تُعرف باسماء مختلفة فالبعض يدعونها بالسريانيَّة والبعض باللغة الفلسطينيَّة والبعض باللغة الآراميَّة او اللغة السريانية الكلدانية والمسمَّى واحد ل . ش